القرآن صوت الله في الأرض

و

صدق النبوة والأنبياء

تأليف
الأستاذ/ محمد محمود عبد الله
مدرس علوم القرآن بالأزهر



ش السيد الدواخلى - أمام جامعة الأزهر بالحسين - القاهرة

اسم الكتـــاب: القرآن صوت الله في الأرض وصدق النبوة والأنبياء

تـــألــيــف: الأستاذ/ محمد محمود عبد الله

النـاشـــــر: دار السندس - للتراث الإسلامي

تليــفــون: ٢٧٨٧٣٤٧٦ - ٢٥٨٩٧٥٢٩ - ٠١٢٣٧٠٧٠٢٦ - ٠١٢٢٥٩٢٤٦٧

سنة النشــــر: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

عدد الصفحات: ٩٦ صفحة

رقـم الإيـداع: ٢٠٠٨/٢٤٥٦٣

تصميم الكتاب: م/ مصطفى أبو غنيمة

الطبعـــة الأولـــى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



Elsondos For Islamic Heritage

شـارع السـيد الدواخلـى أمام بـاب جـامعـة الأزهـر - بالحسـين - القاهــرة

تليفون: 29 75 89 25 تليفاكس: 76 34 87 27 جوال: 67 24 259 012 - 26 70 370 012

E-mail: darsondos@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله واهب العطاء، وقابل الرجاء، صاحب الأمر والتدبير، يزيد في الخلق ما يشاء، وهو على كل شيء قدير، الذى جعل القرآن العظيم صوته في الأرض ودستوره القويم، هداية للناس وضياء، وشرحًا للصدور وشفاء، وحسبك ما جاء في دعاء الحبيب المصطفى ﷺ: «**اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء همى وذهاب حزنى**» فمعلوم أن الصدر للشرح ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الزمر:٢٢) والقلب ينبوع الحياة، وبه عدة دوائر، الدائرة الأولى الفؤاد وهو للتثبيت ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (الفرقان:٣٢) والثانية اللباب وهو للفهم ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠) أما الدائرة الثالثة فهى العقل وهو للترجيح ووزن الأمور بدقة قبل الفصل فيها وهو مناط التكليف، إذ لا تكليف إلا على العقلاء ولذا عاب الحق تعالى على من جحدوا نعمه ولم يستشعروا عظمة قدرته من خلال الموجودات في الخلق، فقال سبحانه وتعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦) أما الرابعة فهى الوجدان ووظيفته الحزن والفرح وقد حذر الله تعالى المؤمنين من الاثنتين بقوله ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد:٢٣) أما الخامسة الجنان وهو دائرة داخل القلب ووظيفته ذكر الله عز وجل في كل إنسان يقظة أو نومًا وبه نبضات القلب وتوزيع قطرات الدم إلى جميع أجزاء الجسد وبه اطمئنان القلوب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد:٢٨) أما السادسة فهى البال بداخل القلب ووظيفته تحقيق يقين الإيمان

وصلاح العمل فيتحقق به كفارة للسيئات وصلاح للبال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (محمد:٢)، وكفى بالقلب فخرًا أنه مناط نظر الرب في العبد في قوله ﷺ: **«إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم التقوى ها هنا التقوى ها هنا ثم أشار إلى القلب».**

والقرآن العظيم هو صوت الله تعالى في الأرض وهو الهدى والشفاء وهو الذى لا تنقضى عجائبه، فكل يوم يطالعنا بالجديد بسبقه العلمى ومطابقته للكشوف العلمية الحديثة، والله أسأل أن ينفع به إنه قريب مجيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

خادم القرآن
محمد محمود عبد الله
مدرس علوم القرآن بالأزهر الشريف



تمهيد للبحث

من فضل الله على الإنسان أنه لم يتركه في حياة يستهدى بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة تقوده إلى الخير وترشده إلى البر فحسب، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولاً يحمل من الله كتابًا يدعوه إلى عبادته وحده ويبشر وينذر لتقوم عليه الحجة؛ لأن عدالة السماء دقة في مقتضى العدل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥). وهكذا سنة الله في الخلق أن لا يعذب حتى يرسل رسلاً يهدون أقوامهم إلى معرفة الحق سبحانه، ويخرجهم من ظلام الجهالة إلى نور المعرفة والهداية.

فالقرآن الكريم رسالة الله إلى الإنسانية عامة: وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك في الكتاب والسنة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)، «وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للعالمين كافة». ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). وهنا معنى عمومية الرسالة المحمدية فلا غرو من أن يأتى القرآن، وافيًا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس القويمة للأديان السماوية، وقد تحدى رسول الله ﷺ العرب بالقرآن، وقد نزل بلسانهم وهم أرباب الفصاحة والبيان فعجزوا أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور أو بسورة من مثله. فثبت له الإعجاز وبإعجازه ثبتت الرسالة وكتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل، فمن أوصاف جبريل الذى نزل بالقرآن: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (الشعراء:١٩٣).

ومن أوصاف المنزل عليه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ (التكوير:١٩-٢٢).

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة:٧٧-٧٩).

ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة؛ لأنها جاءت موقوتة بزمن خاص، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

وقد تجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ (الأحقاف:٢٩-٣١).

والقرآن الحكيم بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية فى شتى مرافق الحياة الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجًا حكيمًا: لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢).

ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافي في منهج واضح يرسم للإنسانية خطاها وتبنى عليها في كل عصر ما يلائمها، فاكتسب بذلك صلاحية لكل زمان ومكان.

فهو دين الخلود. وما أجمل ما قاله داعية الإسلام في القرن الرابع عشر: «الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو هو رحمة وعدالة، وهو قانون وثقافة، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة».

((وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب))

خادم القرآن طامعاً في الغفران
محمد محمود عبدالله
مدرس علوم القرآن بالأزهر الشريف



التعريف بالعلم

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التى لا يزيدها التقدم العلمى إلا رسوخًا في الإعجاز، أنزله الله سبحانه على رسولنا محمد ﷺ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصحابته وهم عرب خلص فيفهمونه بسليقتهم وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألوا عنها رسول الله ﷺ.

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام:٨٢). شق ذلك على الناس. فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣) (وصية لقمان لابنه).

أى إن الظلم الحقيقى هو الشرك بالله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء:١١٦) واخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:٦٠) ألا إن القوة الرمى».

وحرص الصحابة على تلقى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ، وحفظه وفهمه، وكان ذلك شرفًا لهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا، أي عظم.



في تعريف القرآن العظيم

قرأ: تأتى بمعنى الجمع والضم، والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، والقرآن في الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة، وقرآنا، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة:١٧، ١٨)، اى قراءته، فهو مصدر على وزن فعلان بالضم، كالغفران، والشكران: تقول: قرأته قرءًا وقراءة وقرآنا بمعنى واحد سمى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر.

وقد خص القرآن الكريم بالكتاب المنزل على سيدنا محمد ﷺ. فصار له كالعلم الشخصى.

ويطلق لفظ قرآن على مجموع القرآن وعلى كل آية، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٤).

وتسمية هذا الكتاب الجليل بالاسم العظيم قرآن من بين كتب الله؛ لكونه جامعًا لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار الحق سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩) وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨) وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل في الاشتقاق إما لأنه وضع علمًا مرتجلاً على الكلام المنزل على النبى ﷺ، وليس مشتقًا من قرأ. وإما لأنه من الشىء بالشىء إذا ضمه إليه، أو من القرائن لأن آياته يشبه بعضها بعضًا، فالنون أصلية وهذا رأى مرجوح والصواب الرأى الأول.

والقرآن العظيم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص بحيث يكون تعريفه حدًا حقيقيًا، والحد الحقيقى له استحضاره معهودًا في الذهن أو مشاهدًا بالحس كأن تشير إليه مكتوبًا في المصحف أو مقروءًا باللسان: فتقول هو ما بين هاتين الدفتين: أعنى جلدتى المصحف. أو تقول هو

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة:١-٢) إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس:٦). ويذكر له تعريفًا يقرب معناه ويميزه عن غيره، بأنه كلام الله المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه، فالكلام جنس فى التعريف يشمل كل كلام، وإضافته إلى الله تعالى يخرج كلام غيره من الجن والإنس والملائكة.

وبالمنزل على محمد ﷺ، يخرج كلام الله الذى استأثر به سبحانه فقد يتصور البعض أن القرآن هو جملة كلام الله تعالى، إنما لله الكلام النفسى والكلام الذى لا ينفد ولا يعلم حقيقته ومنتهاه إلا الله، ولله المثل الأعلى إذ يقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف:١٠٩) ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان:٢٧).

وبتقييد المنزل على محمد ﷺ، يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

والمتعبد بتلاوته يخرج قراءات الآحاد الواردة والأحاديث القدسية. إن قلت إنها منزلة من عند الله بألفاظها؛ لأن المتعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك.



في إمكان الوحى وإثبات الرسالة

عقيدة الإيمان بالنبوة والرسالة أو الوحى والإلهام:

ومعناها: التصديق بأن الله تعالى ينزل كلامه ويلقى بأمره إلى إنسان يختاره ويصطفيه من بين خلقه ليخبر الناس بمراد الله منهم وما يرتضيه لهم. هى من أهم العقائد وأعظمها خطرا بعد الإيمان بالله تعالى.

وإذا كانت عقيدة الإيمان بالله تعالى واليقين به فطرية.. حتى إنها قد لا تحتاج إلى دليل أو برهان فإن قضية الإيمان بالنبوة والرسالة من القضايا التى قابلتها البشرية بكثير من الإنكار والرفض وعدم القبول وذلك بسبب عجز البشرية يومئذ عن تصور هذا الاتصال بين الخالق والمخلوق وهذه الصلة بين الله تعالى والرسول.. وظل الأمر كذلك فيما يتعلق بأمر النبوة والرسالة إلى أن جاء الوقت التى تستطيع فيه البشرية أن تتقبل الإيمان بالنبوة فى يقين وإلى أن تتفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة التى أتاحتها التجارب العلمية والتى أثبتها الواقع.. ذلك أن هناك وقائع كثيرة تجرى من حولنا في كل لحظة والناس يعجزون عن إدراكها أو سماعها أو الإحساس بها بواسطة أجهزتهم العصبية المحدودة وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لهم إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التى تم اختراعها، وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذبذبات طائر على بعد بضعة أميال وكأنه يطير عند أذنك..

بل لقد بلغ الأمر بالأجهزة العلمية ما وصل إليه التقدم فيها إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء.. لقد اخترع الناس آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع إدراك كثير جدا من الأحداث التى لا يمكننا سمعها بالطرق السمعية التقليدية، وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضا.. ومما لا شك فيه أن سماع الإنسان محدود جدا ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف.. فهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتا تخرج عن نطاق أسماعنا.. ولقد أثبتت البحوث في هذا الميدان أن

بعض الحيوانات يتمتع بقوة الإشراق، فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (العثة) وهى حشرة مجنحة على نافذة مفتوحة فستحدث صوتا يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جدا، ولسوف يجيبها هذا الزوج بطريقته.. وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى (الجندب) يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريقة غير عادية ويسمع على بعد نصف ميل وهو يحرك في هذه العملية ستمائة طن من الهواء ليدعو زوجته.. وهذه الزوجة أيضا ترسل وهى ساكنة بلا حراك جوابا لا نعرفه.. وإنما يعرفه الجندب الذكر.. ثم يلحق بها أينما كانت..

وقد أثبتت البحوث أيضا أن «أبو النطيط» العادى له قدرة خارقة على السماع حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التى تحدث في نصف قطر من ذرة الهيدروجين(١).

وهناك أمثلة أخرى كثيرة تؤكد إمكان وجود وسائل غير مرئية لدى ذوى الحواس الخاصة..

وإذا كان الأمر كذلك، وكما أثبته العلم اليوم فما وجه الغرابة في ادعاء إنسان أنه يسمع صوتا من لدن ربه لا يدركه عامة الناس.. ما دام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات وأصوات لا تسمعها آذان الناس ولكن تسجلها الآلات، وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى..

وإذا كان الوحى: إعلام في خفاء.. فما هو جانب التعجب والاستبعاد فيه.. إن الله تعالى -لحكمة يعلمها- يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية إلى الإنسان المختار للرسالة بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها.. فليس هناك من تصادم في الحقيقة بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية، فهو واقع من الوقائع الكثيرة نشاهدها ونجربها في أمكنة وطرق مختلفة.. فالوحى إمكان وجدناه في شكل الواقع بعد التجربة ولذلك فلم يعد هناك مجال لكى يرفض حقيقته أحد من الناس.

---

(١) ينظر الإسلام يتحدى - للعلامة الهندى المسلم وحيد الدين خان (ص ٩٦) وما بعدها الطبعة الرابعة للمختار الإسلامى. القاهرة: ١٩٧٣.

وقد تبين أن تجارب الإشـراق أو الانكشاف ومـعـرفـة الغيب أمـور لا تخص الحيـوانات فـحسب وإنما توجد في الإنسـان «بالقوة» (أي بالاسـتـعداد والكمـون) فـحدود الفـرد في إطار الزمـان والمكان هي مـجـرد افـتـراض كمـا يقـول الدكتـور اليكسين كيريل[1].

إن من الحقـائق المقررة: إن عامل الإشـراق يستطيع أن يجعلك تنام وتضحك أو تبكى – كمـا يستطيع أن ينقل إليك كلمـات أو خـواطر لست على علم بهـا، إنهـا عملية لا تستعمل فيها أية وسائل ولا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه.

كيـف يسـتحيل وقوع هذه العملية نفسـهـا بين العبـد وربه.. إننا بعد الإيمان بالله تعـالى وبعد الاطلاع على هذه التجـارب الكثيـرة بما في ذلك الإشراق لا نجد أسـاسـا يستند إليه أحد كائنا من كان لإنكار الوحى والإلهام.

لقد تعرض كثير من العلماء لتحليل وشرح العديد من صور عمليات الإشراق وتفـسيـرهـا علميا ومن ذلك مـا قاله بعضهم في تفسيرهـا وتحليلهـا من أن أمواجـا تصـدر من المخ وتنتشـر في العـالم أجـمع بسـرعـة فـائقـة لـذلك أسـمـوهـا بنظـرية (الموجة المخية).

وتأسيسـا على ذلك: فنحن نقول إنه لما كان الإنسـان يستطيع تحـويل الأفكار بأكملهـا إلى إنسـان آخـر على بعـد غيـر عـادى وبدون اسـتـعـمـال أى واسطة مـادية ظاهـرية فلمـاذا تسـتحيل نفس العمليـة بين الإله وعبـاده؟ إن هـذا المظهـر من كفـاءة قوى الإنسان وأمثلة كثيرة لا تحصى – ليس إلا قرينة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الألفاظ والمعانى التى تربط العبد بالإله عندما يرسل رسالاته.

إن الإشــراق أمــر مــعــروف، لدى الناس وهـو يدلنـا على فـهـم ذلك النظام الإشـراقى العظيم بين الإله والعبـاد، والـذى يكون فى أكمل صـورة حين يبلغ درجـة (الوحى) وهـذا الوحى لا يعدو أن يكون إشـراقا كونيا من الإشـراقات التى عـهـدنـاهـا في حياتنا على مستويات محدودة[2].

(١، ٢) ينظر ص ٩٧ و ٩٨ من الإسلام يتحدى للأستاذ وحيد الدين خان – مدخل علمى إلى الإيمان.

حاجة الإنسان إلى النبوة والأنبياء

ضرورة الرسالة لحياتها:

بادئ ذي بدء..

لا بد من الإجابة على هذا السؤال ونحن بصدد هذا البحث: عن النبوة والنبى والسؤال هو: هل من حاجة أو من ضرورة لأن يخاطب الله إنسانا ليبلغ كلامه إلى الناس؟.

والجواب عن ذلك: هو بنعم..

ذلك: أن أكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذى يخبر عنه الرسول من أهم الأمور التى تتعلق بحياة الإنسان ومصيره فالإنسان لا يستطيع أن يصل إلى تلك الحقائق بجهوده الشخصية إنه يبحث منذ آلاف السنين عن[1] حقيقة الكون كى يفهم أسرار بدء الحياة ونهايتها وحقائق الشر والخير، وكيفية صياغة وبناء الإنسان من أجل الإنسانية.. وتنظيم أجهزة الحياة حتى تستطيع الإنسانية أن تسير قدما في طريق الخير والرفاهية، ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح إلى يوم الناس هذا..

لقد تم اكتشاف أسرار الحديد والبترول، وتم التعرف على كثير من حقائق الطبيعة بعد جهد قصير.. ولكن ظهر العجز عن كشف (علم الإنسان) رغم أن جهود أعظم عقولنا العبقرية تواصل البحث عن هذا العلم ولم تستطع حتى الآن تحديد مبادئه وأسسه إن هذا إن دل على شىء فإنه لأكبر دليل على أن الإنسان يحتاج إلى هدى الله من أجل أن يعرف نفسه..

وإن من المسلم به عند الإنسان الجديد في عالمنا المعاصر أنه لم يفلح بعد فى كشف لغز الحياة ولكنه على كل حال يأمل في أن يساعده القدر يوما لرفع القناع عن هذا السر المعقد ولا ريب أن عجز مجتمع العلم والصناعة عن إشباع

---

(١) الإسلام يتحدى ص ١٦.

الحاجات النفسية للإنسان يؤكد الفكرة التى تقول: إننا أعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية على حين تركنا العلوم الإنسانية في مراحلها البدائية - أما الذين دفع بهم طموحهم الجارف إلى العمل في هذا المجال؛ مجال العلوم الإنسانية.. فهم كذلك لم يستطيعوا كشف شيء ما.. بل لجوا في ضلالهم يعمهون..

يقول الدكتور (الكسيس كيريل) الحائز على جائزة نوبل للعلوم.. «من الواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقات الإنسانية لم تكشف بعد - أما الاجتماع والاقتصاد وما أشبههما فهى علوم افتراضية محضة بدون أدلة يمكن إثباتها»[1].

ولا شك أن العلوم الجديدة التى تبهر الإنسان المعاصر في عالم اليوم قد فتحت مجالات متعددة أمام هذا الإنسان ولكنها فى الوقت نفسه جعلت المسألة التى تتجسد في إدراك حقائق الكون وغايات الوجود أكثر غموضا. وإبهاما من التاريخ الفكرى نفسه بأكمله، ولا شك أن علم الإنسان المعاصر بالطبيعة من حوله أكثر غزارة من أى عصر مضى ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة فنحن نواجه اليوم الابهام والتناقضات في كل ناحية.

هذه الكارثة المؤسفة التى يقف إنسان العصر أمامها اليوم بعد بحثه الطويل في العلوم المادية عن سر الحياة تدلنا على أن إدراك سر الحياة لن يتاح للإنسان[2].

ويشرح الأستاذ العلامة وحيد الدين خان[3] هذه الحاجة والضرورة إلى النبوة والرسالة فيقول:

---

(١) الإسلام يتحدى ص ١٦.

(٢) ص ١٦ و ص١٩ من كتاب دكتور كيريل حيث اشار إلى ذلك الأستاذ وحيد الدين خان في (كتابه الإسلام يتحدى مدخل علمى إلى الإيمان ترجمة ولده الأستاذ ظفر الله خان الطبعة الرابعة ، للمختار الإسلامى القاهرة سن ١٩٧٣).

(٣) ص ٩٩ و ١٠٠ من كتاب الإسلام يتحدى/ مدخل علمى إلى الإيمان/ مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين.

«إن أحوالنا تحتم علينا معرفة سر الحياة إذ إننا لا نستطيع مواصلة الحياة في أكمل صورها دون معرفته ولذلك كان خير ما نتمنى بقلوبنا أن ندركه ولا يرضى أسمى جزء من شخصيتنا وهو (العقل) أن يطمئن بدونه فحياتنا مبعثرة لفقداننا هذه الحقيقة.

فسر الحياة: هو ضرورتنا الكبرى، هذا من ناحية، ولكننا من ناحية أخرى لا نستطيع أن نظفر به بجهودنا وحدها..

هذه الحالة الضرورية وحدها تكفى لنتبين حاجتنا الشديدة إلى (الوحى) وأهمية سر الحياة، ثم خروج هذا السر عن دائرة قوى الإنسان يدل على أنه لا بد أن تأتى المعرفة به من الخارج أيضا، كالضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان ولكنهما هيئا من الخارج.

ثم يقول الأستاذ وحيد الدين خان: إن مهمتنا بعد التسليم بإمكان الوحى وضرورته هى أن نبحث عن الإنسان الذى يدعى: أنه نبى. هل هو صاحب الوحى في الحقيقة؟..

وهذا المنهج الذى ارتضاه الأستاذ: هو ما ارتضيناه نحن أيضا وسنحاول في الأبحاث التالية لهذا الجزء أن نسير على هداه ونقيم البراهين على صدق النبوة والرسالة لصاحب الرسالة والشريعة الخاتمة سيدنا محمد ﷺ..

هذا.. وبالله وحده التوفيق.



الطريق إلى فهم حقيقة النبوة

أبو حامد الغزالى وفهم حقيقة النبوة:

يرى: الإمام أبو حامد الغزالى[1] أنه لا طريق إلى فهم حقيقة النبوة إلا بممارسة طريق التصوف لذى يبدأ: بالتخلى، ثم التحلى، ثم ينتهى بالتجلى...

أى: التخلى عن الشهوات والتحلى بالفضائل ثم التجلى: أى التطلع إلى الإفاضة الصمدانية. أو هو الطريق: الذى يبدأ: بالرفض.. ثم النفض.. ثم الفيض: أى رفض الخضوع للشهوات ونفض اليد من كل ما عدا الله ثم يلى ذلك فيض النور الإلهى على العبد..

ومن هنا فإن طريق الإيمان بالنبوة (فى رأى الغزالى)[2] «أن يقر (المؤمن) بإثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عين يدرك بها (النبى) مدركات خاصة العقل معزول عنها: كعزل السمع عن إدراك الألوان والبصر عن إدراك الأصوات وجميع الحواس عن إدراك المعقولات» ولا سبيل إلى إدراك حقيقة هذا الإيمان إلا بممارسة طريق التصوف.. ولذلك فقد طفق الغزالى: يتحدث عن تجربته الشخصية في هذا الميدان، والتى انتهت به إلى فهم حقيقة النبوة عن طريق ملابسة عين حالتها.. وتذوقها تذوقا كاملا وتاما.. وذلك في كتابه المنقذ من الضلال[3] فيقول: (بعد كلام طويل يوضح فيه: كيف فقد ثقته في التقليد والحس

---

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد المولود سنة ٤٥٠ هـ في طوس والمتوفى سنة ٥٠٥ هـ والذى سمت به شهرته العلمية وقوته العقلية إلى رتبة الأستاذية بالمدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٨٤هـ والذى كلفه الخليفة المستظهر سنة ٤٨٧ بأن يكتب ضد الإسماعيلية فاجابه. والذى الف كثيرا من المؤلفات تبلغ المائة كتاب.

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٤٨ الطبعة السادسة سنة ١٩٦٨.

(٣) المنقذ من الضلال: كتاب يشتمل على استهلال واضح لحياة مؤلف التصوفية وقد ألفه في نيسابور حين ارتحل إليها للمرة الثانية وقد طبع في مصر سنة ١٣٠٩ كما طبع منه أخيرا ست طبعات بتحقيق وتقديم الدكتور عبد الحليم محمود ومنه نسخ خطية في مكتبات (برلين)، (لايدن)، (باريس)، (الاسكوريال) وقد ترجم إلى الفرنسية مرات منها ترجمة الأستاذ (باربيه دى مينار) سنة ١٨٧٠. (التنسك الإسلامى) ص ١٩٣ للأستاذ الدكتور محمد غلاب.

والعقل وكيف نفض يده من علوم كثيرة لم يجد فيها طلبته ولم يصل منها إلى غايته. وكيف أنه أقبل بعدها على طريق التصوف الذى لا يتم إلا بالعلم والعمل معا، وكيف كان العلم عنده أيسر عليه من العمل فابتدأ يطالع كتبهم: فظهر له أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبديل الصفات ثم بين كيف انتزع نفسه مما هو فيه وأقبل بكنه همته على ربه بعد أن ظل يعانى صراعا ظل يتردد فيه بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر، انتهى على حد قوله (يتجاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ قفل الله عليه لسانه حتى اعتقل عن التدريس فالتجأ إلى ربه: أن يسهل على قلبه الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب. فأجابه الذى يجيب المضطر إذا دعاه) ثم يقول[١]: «ففارقت بغداد وفرقت ما كان معى من المال ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة: اشتغالا بتزكية النفس. وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله كما كنت حصلته من علم الصوفية فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق: أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى ثم رحلت منها إلى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسى ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن (بغداد) فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه فآثرت العزلة به أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكان لا يصفو الحال لى إلا في أوقات متفرقة لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها فتدفعنى العوائق عنها وأعود إليها، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين. وانكشف لى في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذى أذكره لينتفع به: أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة. وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه: لم يجدوا إليه سبيلا.. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور

---

(١) ينظر المنقذ من الضلال.

مشكاة النبوة.. وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به «فمن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق المنطق فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول وكل ذلك: خطأ.

بل الذى لابسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فمن لم يرزق منه (أى من الحال الذى هو ثمرة للطريق) شىء بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم.

فكرامات الأولياء -على التحقيق- هى بدايات الأنبياء وكان ذلك في أول حال رسول الله ﷺ حيث تبتل حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب: «إن محمدا عشق ربه» وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها.

فمن لم يرزق فليتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقينا ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان «فهم القوم لا يشقى جليسهم».

ومن لم يرزق صحبتهم: فليتعلم إمكان ذلك يقينا بشواهد البرهان.

فمما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم (طريقة أهل التصوف) حقيقة النبوة وخاصيتها[1].

ولا بد من التنبيه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها[2].

---

(١) من ص ١٣١ إلى ص ١٣٤ مع الاختصار من كتاب (المنقذ من الضلال) الطبعة السادسة لسنة ١٩٦٨ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.

(٢) في نقطة تالية من نقاط البحث: أفردت لكشف الغزالى عن حقيقة النبوة وشرحه لها عنوانا منفردا لأهميتها.

حقيقة النبوة كما يكشف عنها ويشرحها الغزالى

طفق الغزالى يكشف عن حقيقة النبوة بهذا التوضيح والشرح المستفيض، فقال:

إن جوهر الإنسان في أصل الفطرة خلق ساذجا لا خبر معه من عوالم الله، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى، كما قال ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (المدثر:٣١).

وإنما خبره الإنسان بواسطة الإدراك، وكل إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ونعنى بالعوالم أجناس الموجودات، فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس، فيدرك بها أجناس من الموجودات كالحرارة والبرودة، إلخ، واللمس قاصر عن (إدراك) الألوان والأصوات قطعا، بل هى كالمعدوم في حق اللمس.

ثم يخلق له حاسة البصر فيدرك بها الألوان والأشكال وهو أوسع عوالم المحسات.

ثم ينفخ فيه السمع فيسمع الأصوات والنغمات: ثم يخلق له الذوق.. وكذلك.. إلى أن يجاوز عالم المحسات.. فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين، وهو طور آخر من أطوار وجوده، فيدرك فيه أمورا زائدة على المحسات لا يوجد منها شىء في عالم الحس.

ثم يترقى إلى طور آخر فيخلق له العقل: فيدرك: الواجبات والجائزات والمستحيلات، وأمورا لا توجد في الأطوار التى قبله.

ووراء العقل طور آخر، تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب، وما سيكون في المستقبل، وأمورا أخرى، العقل معزول عنها، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز، وكما أن المميز لو عرضت عليه

مدركات العقل لأباها واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء: أبوا مدركات النبوة، واستبعدوها، وذلك عين الجهل، إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه، ولم يوجد في حقه، فيظن أنه غير موجود في نفسه.

والأكمه[1] لو لم يعلم بالتواتر والتسامح والألوان والأشكال، وحكى له ذلك ابتداء لم يفهمها ولم يقربها. وقد قرب الله تعالى ذلك (أى فهم حقيقة النبوة على (أنها طور وراء العقل تتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأمورا أخرى العقل معزول عنها) لقد قرب الله ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة وهو النوم.. إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب: إما صريحا، وإما في كسوة مثال، يكشف عنه التعبير..

وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه وقيل له: إن من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت، يزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره، وأقام البرهان على استحالته وقال:

«القوى الحساسة أسباب الإدراك، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فإنه لا يدركها مع ركودها أولى وأحق، وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعا من المعقولات والحواس معزولة عنها، فالنبوة أيضا عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور، يظهر في نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل[2].



(١) الأكمه: كمه الرجل: عمى أو صار أعشى فهو اكمه، والأكمه أيضا: هو الذى يولد مطموس البصر خلقة (محمد إسماعيل: معجم الألفاظ جـ٢ ص ١٧١).

(٢) ص ١٣٥، ص ١٣٦ من المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى، الطبعة السادسة بتحقيق أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود سنة ١٩٦٨م. مطبعة مخيمر، القاهرة.

الشك في النبوة ودحض

الغزالي له بما يبطله

لقد قدم الغزالى كتابه (المنقذ من الضلال) طوق نجاة لمن فسد يقينه بالنبوة، حتى ربما انتهى به أمره إلى أن ينكرها أصلا.. وانتهى الأمر بالغزالى في منقذه، إلى أن تطوع من ذات نفسه فأثار قضية الشك فيها، وذهب يدحض حججها واحدة بعد واحدة حتى ينتهى بالمعتقد إلى اليقين التام والإيمان الكامل، وأنها صدق لا مرية فيه، وحق لا شك يعتريه..

فيقول: الشك في النبوة إما أن يقع:

(أ) في إمكانها... (ب) أو فى وجودها ووقوعها... (جـ) أو في حصولها لشخص معين...[(١)].

أما دليل إمكانها: فوجودها بالفعل في عالم الواقع (الذى يعيشه الناس).

وأما دليل وجودها: فوجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلم الطب والنجوم، فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهى، وبتوفيق من جهة الله تعالى، ولا سبيل إليها بالتجربة.. فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة.. فكيف ينال ذلك بالتجربة.. وكذلك خواص الأدوية، فقد تبين بهذا البرهان: أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة.. لا أن النبوة عبارة عنها فقط، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل: أقوى خواص النبوة، وللنبوة خواص كثيرة سواها.. وما ذكرنا فقطرة من بحرها، إنما ذكرناها لأن معك أنموذجا منها وهو مدركاتك في النوم ومعك علوم من جنسها فى الطب والنجوم.. وهى معجزات الأنبياء.. ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا، وأما ما عدا هذا من

---

(١) ص ١٣٦ من كتاب (المنقذ من الضلال) لحجة الإسلام الإمام الغزالى، الطبعة السادسة سنة ١٩٦٨ بتحقيق الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر.

خواص النبوة: فإنما يدرك بالذوق، من سلوك طريق التصوف.. لأن هذا فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ولولاه ما صدقت به، فإن كان للنبى خاصة ليس لك منها أنموذج، ولا تفهمها أصلا: فكيف تصدق بها؟ وإنما التصديق بعد الفهم، وذلك الأنموذج: يحصل في أوائل طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل، ونوع من التصديق لم يحصل بالقياس إليه.. فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة..

فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبى أم لا: فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله... إما بالمشاهدة، أو بالتواتر والتسامع، فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء، بمشاهدة أحوالهم، وسماع أقوالهم، وإن لم تشاهدهم، ولا تعجز أيضا عن معرفة كون الشافعى فقيها، وكون (جالينوس) طبيبا، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير، بل بأن تتعلم شيئا من الفقه والطب، وتطالع كتبها، وتصانيفهما، فيحصل لك علم ضرورى بحالهما[1].

فكذلك: إذا فهمت معنى النبوة:

«وهى أنها طور وراء العقل، تنفتح فيه عين، يدرك بها مدركات خاصة، العقل معزول عنها كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات».

إذا فهمت معنى النبوة، فأكثرت النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة.

وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب، وكيف صدق في قوله «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

وكيف صدق رسول الله ﷺ في قوله: «من أعان ظالما، سلطه الله عليه».

وكيف صدق في قوله: «من أصبح وهمومه هم واحد هو التقوى كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة».

---

(١) ص ١٢٨ من المصدر السابق.

فـإذا جـربت ذلك في ألف، وألفين، وآلاف: حـصل لك علم ضـرورى لا تتمارى فيه[١].

طريق اليقين بالنبوة هو هذا الذى قدمه الغزالى:

يقول الإمام الغزالى في (منقذه): «فمن هذا الطريق، اطلب اليقين بالنبوة، لا من قلب العصا ثعبانا، وشق القمر، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، ربما ظننت أنه سحر وتخبيل، وأنه من الله إضلال، فإنه «يضل من يشاء ويهدى من يشاء».

وترد عليك أسئلة المعجزات، فإن كان مستندا إيمانك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الأشكال والشبهة عليها.

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في مجلة نظرك، حتى يحصل لك علم ضرورى لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين، كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين، بل من حيث لا يدرى، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد.

فهذا هو الإيمان القوى العلمى[٢].

طريق اليقين بالنبوة كما يراه الشيخ محمد عبده:

إذا كان الإمام أبو حامد الغزالى في كتابه (المنقذ من الضلال) قد حدد طريق اليقين بالنبوة ورسم للناس طريق الإيمان بها في أوضح بيان وأروع منطق حين قال: «إن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبى أم لا؟ فلا يحصل اليقين (بصدقه في دعواه) إلا بمعرفة أحواله: إما بالمشاهدة أو التواتر - أو التسامع.. فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم ولا تعجز أيضا عن معرفة كون الشافعى رحمه الله فقيها وكون (جالينوس) طبيبا: معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير بل

---

(١) ص ١٣٨، ١٣٩ من (المنقذ من الضلال) الطبعة السادسة بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.
(٢) ص ١٣٩ المصدر السابق.

بأن تتعلم شيئا من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما: فيحصل لك علم ضرورى بحالهما[١] ثم يطبق الإمام الغزالى هذا المنهج الفريد في بابه على صدق نبوة إمام الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ فيقول:

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة (وأنها: طور وراء العقل: تتفتح فيه عين يدرك بها النبى مدركات خاصة العقل معزول عنها: كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات وجميع الحواس عن إدراك المعقولات[٢] يقول إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة.. وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب وكيف صدق في قوله «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»).

وكيف صدق في قوله «من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة وكيف صدق في قوله «من أعان ظالما سلطه الله عليه» فإذا جربت ذلك في ألف وألفين حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه، فمن هذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة[٣].

نقول: إذا كان الإمام أبو حامد الغزالى قد حدد طريق اليقين بالنبوة ورسم أبعاده ومعالمه كما قدمنا فقد بدأ (الشيخ محمد عبده) في كتابه «رسالة التوحيد» الحديث عن طريق اليقين بالنبوة بالحديث عن الوحى وشرح حقيقته وبيان أنه ممكن في ذاته، ورد شبه المشتبهين ووساوس الواهمين ذلك أن (الشيخ محمد عبده) كان يرى أن الوحى: قد يشكل أمام بعض النماذج من الناس عقبة يتعثرون عندها وهم بصدد طريقهم إلى اليقين بالنبوة. فرأى أنه من الضرورى وهو بصدد

---

(١) (المنقذ من الضلال) الطبعة السادسة تحقيق أستاذنا الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٢٨.
(٢) نفس المصدر والموضع.
(٣) نفس المصدر ص ١٣٨، ١٣٩.

الحديث عن اليقين بالنبوة، والإيمان بها، أن يبسط الحديث في قضية الوحى وأن يشبعها شرحا وإيضاحا، فقال[1]:

الكلام في إمكان الوحى: يأتى بعد تعريفه لتصوير المعنى الذى يراد منه...

ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر: فيفهم معنى المصدر نفسه... ولا يعنينا ما تثيره الألفاظ في الأذهان ولنذكر من اللغة ما يناسبه:

يقال: وحيت إليه وأوحيت، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره.. والوحى: مصدر من ذلك، والمكتوب والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه.. ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله.

وقيل: الوحى.. إعلام في خفاء، ويطلق ويراد به الموحى.. وقد عرفوه شرعا: بأنه كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه.

أما نحن فنعرفه: (أى نعرف الوحى) - على شرطنا - بأنه: عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بانه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة. والأول: (وهو العرفان الذى يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من الله والذى يكون بواسطة) يكون بصوت يتمثل لسمعه، أو بغير صوت.

ويفرق بينه (أى بين الوحى) وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلبه على غير شعور منها من أين أتى؟.. وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل: فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم...[2].

---

(١) ص ١٠٤ وما بعدها من رسالة التوحيد: الطبعة الثانية لدار المعارف لسنة ١٩٦٦ بتحقيق محمود أبو رية.

(٢) ص ١٠٤ رسالة التوحيد.

أى استحالة في الوحى؟ وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة؟[١].

ثم يقول: مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوته يعلو بعضها بعضا وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط، بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ولا شبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه.. ولا تزال المراتب ترتقى في ذلك إلى ما لا يحصره العد، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى إليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ثم يألفون ما صار إليه كأنه من المعروف الذى لا ينازع والظاهر الذى لا يجاحد، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم في بادئ الأمر على من دعاهم إليه، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا في كل أمة إلى اليوم.

فإذا سلم «ولا محيص عن التسليم» بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل، والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها: أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعديه (من محض الفيض الإلهى) لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعليم، ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم، وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة يظهر برحمته من يختصه بعنايته ليفى للاجتماع بما يضطر إليه مصلحته إلى أن يبلغ النوع الإنسانى أشده وتكون الأعلام التى نصبها

---

(١) ص ١٠٥ نفس المصدر السابق.

لهدايته إلى سعادته كافية في إرشاده فتختم ويغلق باب النبوة كما سنأتى عليه في رسالة نبينا ﷺ (١).

أما وجود بعض الأرواح العالية (وهم الملائكة المكرمون) وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية: فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وإن غيب عنا فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشىء من العلم الإلهى وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه، فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته(٢) ثم يتطرق الشيخ محمد عبده بحديثه إلى بيان الدليل على رسالة أى نبى وصدقه في دعواه فيقول: الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر:

للشاهد: الذى يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان.

أما للغائب: عن زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما تبين في علم آخر: رواية خبر عن مشهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب. وآيته: قهر النفس على اليقين بما جاء فيه.. كالإخبار بوجود (مكة) أو بأن للصين عاصمة تسمى (بكين) وسبب استحالة التواطؤ على الكذب: استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من العوارض التى تضعف الثقة به، ومرجع كل ذلك إلى العدد، وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر(٣)...

ومن الأنبياء: من استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كإبراهيم وموسى وعيسى ومما جاء به الخبر أنهم:

١- لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا ولا بالأكثر مالا، ولم

(١) ص ١٠٥ وما بعدها من رسالة التوحيد ط - المعارف.
(٢) ص ١٠٧ نفس المصدر السابق.
(٣) ص ١١٠، ١١١ من نفس المصدر.

يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا إليه، وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الأنظار، ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم، ووفرة المال لديه، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم: قاموا بالدعوة إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض، ما أراد شرعه للناس وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة.

٢- ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطر، وكان الخير لأمموم في اتباع ما جاءوا به حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها، ورزاهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى لا يصح معه في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله ولا في دعواهم: أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس.

٣- على أن (من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر في العقول) والباطل لا بقاء له إلا في الغفلة عنه كالنبات الخبيث في الأرض الطيبة: ينبت بإهمالها وينمو بإغفالها فإذا لامستها عناية يد الزارع غلبه الخصب، وذهب به الزكاء.. ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت في العالم الإنسانى ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه مع كثرة المعارضين وقوة سلطان المغالبين.. فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة[1].

أقول: مما تقدم نستطيع أن ننتهى إلى هذه النتائج التى جعلنا هذه النصوص كالمقدمات (ونحن بسبيل تقرير طريق الإيمان واليقين بالنبوة كما يراه الشيخ محمد عبده).

١- أن أمكان حصول هذا النوع من العرفان (الذى هو الوحى) أمر ممكن لا استحالة فيه مطلقا «بل هو أمر واقع شهدت به البديهة، وبرهنت عليه الضرورة، وأقر به منطق العقلاء».

(١) ص ١١١ من رسالة التوحيد ط٢ لدار المعارف بتحقيق أو رية.

٢- أن الطريق إلى اليقين بالنبوة والإيمان بها إما أن يكون عن طريق المشاهدة لمن تيسر له معاصرة النبى أو الرسول وتهيأ له إبصار ما أجراه الله على يديه من آيات ومعجزات حتى جعلته يحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان.

وإما أن يكون ذلك عن طريق التواتر: الذى يفيد اليقين للاستحالة الفعلية في التواطؤ على الكذب وذلك بالنسبة للغائب عن بعثة النبى أو الرسول..

ثم أضاف الشيخ محمد عبده إلى دلائل صدقهم عن طريق المشاهدة أو التواتر قوله:

٣- أنهم لم يكونوا بالأقوى سلطانا، ولا بالأكثر علما ولا مالا، ومع ذلك قاموا بالدعوة إلى الله تعالى على رغم الملوك والأجناد بل صاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم، وادعوا أنهم يبلغون عن الله ما شرعه للناس، وأقاموا من الدليل ماتصاغرت منه قوة المعارضة.

٤- كما استدل بثبات شرائعهم في الكون ثبات الغرائز في الفطر، وظهور الخير لأممهم ما استقاموا على هدى نبيهم بأن ذلك من أعظم الأدلة على صدقهم فيما جاءوا به عن ربهم. الأمر الذى يؤكد أنه يستحيل أن تكون هذه النبوات أسها الكذب أو دعامتها الحيلة.



من علامات النبوة وأماراتها

ذكر العلامة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته الشهيرة بعض العلامات المميزة للأنبياء والتى هى خاصة بهم، ودالة على صدقهم في دعوى الرسالة والنبوة فقال(١):

وعلامة هذا الصنف من البشر: أن توجد لهم في حال الوحى غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كانها غشى أو إغماء في رأى العين وليست منها في شىء، وإنما هى في الحقيقة: استغراق فى لقاء الملك الروحانى بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ثم يتنزل إلى المدارك البشرية إما بسماع دوى من الكلام فيتفهمه، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله، ثم تتجلى عنه تلك الحال، وقد وعى ما ألقى إليه. قال ﷺ وقد سئل عن الوحى «أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ فيفصم(٢) عنى وقد وعيت عنه ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول»(٣) ويدركه في أثناء ذلك من الشدة ما لا يعبر عنه ففى الحديث «كان ﷺ يعالج من التنزيل شدة».

وقالت عائشة رضى الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا»(٤). وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمل:٥) ولأجل هذه الغاية في تنزل الوحى كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون: له رئى، أو تابع من الجن وإنما لبس بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:٣٦).

ومن علاماتهم أيضا: أنه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والذكاء ومجانبة

---

(١) ص ٨٥ من الجزء الثانى: من مقدمة العلامة عبد الرحمن بن خلدون ط. الشعب فبراير ١٩٧٠.

(٢) يفصم عنى: يفارقنى.

(٣) صحيح البخارى

(٤) البخارى جـ١ ص٤ عن عائشة ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

المذمومات والرجس أجمع: وهذا هو معنى (العصمة) وكأنه (أى النبى) مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته وفي الصحيح: أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بإزاره[١].

ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شأنهم[٢] بل نزهه الله عن ذلك كله حتى إنه بجبلته كان يتنزه عن المطعومات المستكرهة فقد كان ﷺ: لا يقرب البصل والثوم فقيل له في ذلك.. فقال: «إنى أناجى من لا تناجون»[٣].

ومن علاماتهم أيضا دعاؤهم إلى الدين والعبادة: من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلت «خديجة» رضى الله عنها على صدقه ﷺ بذلك: ذلك يوم جاءه الملك في غار حراء وقال اقرأ «لقد رجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال: زملونى، زملونى[٤] فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى فقالت (خديجة): كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل[٥] وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق» وكذلك أبو بكر لم يحتج في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه.

وفى الصحيح [٦]: أن هرقل (ملك الروم) حين جاءه كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد ببلده من قريش وفيهم أبو سفيان: ليسألهم عن حاله فكان فيما سأل: أن قال: بم يأمركم؟ فقال أبو سفيان: بالصلاة والزكاة والصلة

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) رواه البيهقى بمعناه ٢ ٣٨١ في دلائل النبوة.
(٣) رواه البخارى وغيره.
(٤) زمله في ثوبه لفه فيه. والمزمل: هو المتزمل أى الملتف بثيابه ص ٢٤٤ جـ١ معجم الألفاظ القرآنية لمحمد إسماعيل.
(٥) الكل: من يكون عالة على غيره المرجع السابق ص ١٦٩ جـ٢.
(٦) صحيح البخارى جـ١ ص ١٠ ط. المجلس الأعلى.

والعفاف إلى آخر ما سأل. فأجابه فقال: إن يكن ما تقول حقا فهو نبى وسيملك ما تحت قدمى هاتين والعفاف الذى أشار إليه هرقل هو العصمة فانظر كيف أخذ العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته ولم يحتج إلى معجزة فدل على أن ذلك من علامات النبوة»(١).

ومن علاماتهم أيضا: أن يكونوا ذوى حسب في قومهم وفى الصحيح «ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه» وفى رواية أخرى «في ثروة من قومه»(٢).

وفى مسألة هرقل لأبى سفيان كما هو في الصحيح قال: كيف هو فيكم؟ فقال أبو سفيان: هو فينا ذو حسب فقال هرقل: والرسل تبعث في أحساب قومها. ومعناه: أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه من أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته.

ومن علاماتهم أيضا: وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد «وإنما تقع في غير محل قدرتهم» وليس للنبى في المعجزة عند سائر (المتكلمين)(٣) إلا التحدى فيها بإذن الله. وهو أن يستدل بها النبى ﷺ قبل وقوعها على صدقه في مدعاه فإذا وقعت: تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق (أى كأن الله يقول: صدق عبدى فيما يبلغ عنى) وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية. فالمعجزة دالة بمجموع الخارق والتحدى. ولذلك كان التحدى جزءا منها(٤) والتحدى (بالمعجزة التى هى أمر خارق) هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر. إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق. فلا وجود للتحدى إلا إن وجد اتفاقا(٥).

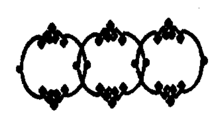
---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٨٦ ط. الشعب ١٩٧٠: القاهرة.
(٢) استدركه الحاكم على الصحيحين.
(٣) علماء الكلام.
(٤) ص ٨٧ مقدمة ابن خلدون جـ٢ ط. الشعب ١٩٧٠.
(٥) الموضع السابق من المصدر السابق.

أعظم المعجزات وأوضحها القرآن:

وإذا تقرر ذلك: فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه..

والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى. فهو أوضح دلالة: لاتحاد الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله ﷺ: «ما من نبى من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى إلي فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». يشير ﷺ إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة.. وهو كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة[1].



(١) ص ٨٨ جـ٢ من مقدمة عبد الرحمن بن خلدون: ط الشعب.

منهاج تحصيل العلم الضرورى

بتصديق النبى ﷺ

ومن نظر في أقوال رسول الله ﷺ: وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين وبالجملة ما لا يصح إلا به دينهم ودنياهم، حصل له علم ضرورى بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده..

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال وإلى عجائب الغيب الذى أخبر عنه في القرآن على لسانه وفي الأخبار وإلى ما ذكره في آخر الزمان فظهر ذلك كما ذكره: علم علما ضروريا - أنه بلغ الطور الذى وراء العقل وانفتحت له العين التى ينكشف منها الغيب الذى لا يدركه إلا الخواص والأمور التى لا يدركها العقل.

فهذا هو: منهاج تحصيل العلم الضرورى بتصديق النبى محمد ﷺ فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعرف ذلك بالعيان[1].

ولعل خير ما نختم به موضوع علامات النبوة وأماراتها التى تفضى بالعبد إلى الإيمان واليقين. والتى ترتبط بتتمة الكلام عن منهاج تحصيل العلم الضرورى بتصديق النبى محمد ﷺ في دعوى الرسالة والنبوة هذا الحوار العقلى الحكيم الذى دار بين أبي سفيان بن حرب وهرقل ملك الروم بعد إذ جاءه كتاب الرسول ﷺ يدعوه فيه إلى الإيمان والإسلام. وانتهى منه هرقل إلى اليقين بصدق محمد ﷺ ولعله من حسن الحظ أن يسجل البخارى في صحيحه[2] هذا الحوار الممتع الذى يخدم قضية الإيمان أجل الخدمات وأزكاها وأنفعها اثرا على مر الأيام.

(١) ص ١٤٨، ص ١٤٩ من كتاب (المنقذ من الضلال) لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥ بتحقيق استاذنا الدكتور عبد الحليم محمود من سلسلة الدراسات الفلسفية والأخلاقية.

(٢) ينظر ص ١٠ وما بعدها من الجزء الأول من صحيح البخارى ط- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. طبعة سنة ١٣٨٦هـ.

فهرقل ملك الروم الذى تولى كبر هذا الحوار وأدار دفته بمهارة فائقة لم يكن شخصا عاديا كما لم يكن رجلا ساذجا ولكنه كان رجلا نظيف العقل سليم الفطرة عظيم الثقافة وافر العلم. وأرض الروم نفسها التى يملك هرقل أرضها كانت تزخر يومها بنتاج وافر من ثمرات الفلسفة وروائع الفكر والحكمة.

ولذلك نجد هرقلا في حواره.. قد جند كل ذكائه كما استخدم كل محصول ثقافته الوافرة وفي مقدمة ذلك المنطق التجريبى القائم على مبدأى الاستقراء والبحث حتى يصل بذلك إلى اليقين الذى لا يعتريه شك في شأن محمد ﷺ وصدقه في نبوته والمنطق التجريبى: الذى اعتمد عليه هرقل لكى يوصله إلى نتيجة يقينية ضرورية في شأن محمد ﷺ هو منطق العلوم بلحمه وشحمه: الذى استطاع اليوم أن يثمر ما يستمتع به الناس الآن من حضارة وتقدم ورفاهية وازدهار.

فعن عبد الله بن عباس[1] أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام في المدة التى كان رسول الله ﷺ ماد[2] فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء[3] فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟

فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبا.

فقال هرقل: أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره.

---

(١) صحيح البخارى في الموضع السابق.

(٢) ماد: فعل ماض يقال: ماد الغريمان إذا اتفقا على أجل الدين وحددا له زمانا. واشتقاقه من المدة: هى صلح الحديبية الذى جرى بين النبى وبين أبى سفيان حاكى القصة وكفار قريش سنة ست من الهجرة: ينظر الجزء الأول ص٥٤ من شرح الكرمانى على البخارى الطبعة الثانية سنة ١٩٣٩.

(٣) إيلياء: هو بيت المقدس: ومعناه: بيت الله وفيه لغات ثلاث: أشهرها: كسر الهمزة واللام، وسكون الياء بينهما: ص٥٤ من المصدر السابق.

ثم قال لترجمانه: قل لهم إنى سائل هذا (أبا سفيان) عن هذا الرجل (محمد ﷺ) فإن كذبنى[١] فكذبوه.

يقول أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف القوم يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة[٢] لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا.. ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها. قال أبو سفيان: ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول أباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان:

قل له: سألتك عن نسبه.. فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل: تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا.. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسى[٣] بقول قيل قبله.

---

(١) كذبنى: نقل إلى الكذب وقال لى خلاف الواقع بتخفيف الذال.

(٢) الكراهية للشيء وعدم الرضا به.

(٣) يقتدى ويتبع.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. فقلت: لو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت: أن ضعفاءهم اتبعوه.. وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزيدون. وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا.. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا.. وكذلك الرسل لا تغدر(١).

وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت: أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف.

«فإن كان ما يقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج. ولم أكن أظن أنه منكم. فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه»(٢).

من علامات النبوة كما يراها بعض العلماء المعاصرين:

وفي الموضوع نفسه كتب الشيخ يوسف الدجوى(٣) عن النبوة فقال:

إن للنبوة آيات لا بد منها: من صفات ذاتية، ومعجزات حسية ومعنوية

---

(١) الغدر: ترك الوفاء بالعهد. وهو خلق مذموم عند جميع الناس.

(٢) صحيح البخاري الجزء الأول ص ١٠ وما بعدها ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٣) الشيخ يوسف الدجوى المولود سنة ١٢٨٧هـ والمتوفى سنة ١٣٦٥هـ كان عالما حكيما يؤمه رواد العلم والحكمة وكان موصول النشاط في خدمة الإسلام والدفاع عنه عقيدة وشريعة على الرغم من أنه كان -ضريرا- حتى لقي ربه رحمه الله رحمة واسعة.

ونفوس جاوزت أطوار البشرية، واستقرت فى تلك العوالم القدسية، فهى لا تعرف غير الله ولا تحدث عما سوى الله إلا بما جاءها عن الله، قد اتسع نظرها، وتم نورها، فعلمت من حقائق الأشياء ما لا يعلمه غيرها، وعرفت من جلال الله ما لا يعرفه سواها[١].. ثم قال: ولنبين ذلك الإجمال، ونذكر شيئا من صفات النبوة وخصائصها التى جبل عليها الأنبياء فنقول[٢]. إن في ذات النبى نورا خلقيا في أصل تكوينه اقتضته درجة روحه الشريفة (وبين الأرواح من التفاوت في الدرجات واختلاف الاستعدادات ما لا يعلمه إلا الله تعالى).

وبذلك النور لا يمكن تلك الذات التى خلقت على هذا الوجه إلا أن تكون على أكمل الفضائل، فهى مثلا: تقول الحق وتقدسه، ولو كان فيه حتفها وهلاكها فإن ذلك من سجيتها وطبيعتها، وقد طلب (المشركون) منه ﷺ أن يرجع عن قوله وراودوه على ذلك بكل حيلة، فأبى وامتنع، ثم نصبوا له العداوة ورموه عن قوس واحدة، فما زاده ذلك إلا تثبيتا ورسوخا، لأن الذات الشريفة المطبوعة على قول الحق لا يتصور منها غيره.

ومن تلك الصفات التى جبل عليها النبى: الرحمة بجميع المخلوقات، حتى الحيوان الأعجم، ولذلك جاء ﷺ في باب التحذير من القسوة بما تعجب له، وأبان من جزاء الشفقة على خلق الله ما لا غاية وراءه، فذكر في الحديث الصحيح أن امرأة دخلت النار في هرة عذبتها، وجاء في الصحاح: أن رجلا مسرفا على نفسه وجد كلبا يلهث من العطش فسقاه حتى أرواه، فشكر الله له ذلك فغفر له، إلى غير ذلك مما ينبئك عما كانت تمتلئ به نفس رسول الله ﷺ من الرأفة والرحمة بجميع المخلوقات.

وهكذا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فهم أبر الناس بالناس وأنفع الناس للناس وأعظمهم في ذلك نبينا ﷺ، حتى إن ما تراه من شدته ﷺ على

---

(١) الفلسفة والنبوة: بحث طبعته (منفصلا) مجلة الأزهر في ربيع الأول سنة ١٣٨٩هـ للشيخ يوسف الدجوى رحمه الله.

(٢) ص ٧ ومابعدها من المصدر السابق.

الكفار والمشركين، فمنشؤه إنما هو رحمته بهم وشفقته عليهم أن تجتالهم الشياطين فيأخذهم من السعادة الأبدية إلى الشقاء الأبدى، فيشقون وتشقى بهم الإنسانية، فكان حربه ﷺ في الحقيقة حربا لجند الشيطان الذى يريد أن يسلب الإنسان سعادته إلى آخر ما لا يسع المقام تفصيله وبيان أسراره(١).

ومما يجب أن نبينه هنا أن للأنبياء أذواقا في الأشياء لا يعرفها إلا الخواص من عباد الله، فإن أكثر من في الأرض لا يذوقون إلا الحسيات، ولا ذوق لهم في المعنويات، وما أروع الأشياء من لطائف وأسرار، وقد يقرب إليك ذلك بعض التقريب، ما ترى أو تسمع به من عشق أرباب النفوس الطاهرة لمعالى الأشياء وإيثارهم العلم والمعرفة على كل شيء، لأنهم يذوقون من ذلك لذة تفوق كل لذة مادية وقد قال قائلهم:

سهرى لتنقيح العلوم الذلى

من وصل غانية وطيب عناق

وتمايلى طربا لحل عويصة

أشهى من النغمات للعشاق

ولا بد لنا في هذا المقام أن نشير: إلى أن أرواح الأنبياء من طراز آخر في علمها وقوتها وكل صفاتها، ولذلك تظهر عليها خوارق العادات من كشف المغيبات وظهور الآيات مثل ما حصل له ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، ومن ذلك ما يقال: إن عيسى عليه السلام كان يمكث أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب، وقد قال ﷺ: «أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى» فهو لا يحس بتلك المؤلمات إلا إذا رجع لهذا العالم، وسادت عليه أحكامه وقوانينه، أما ما دام عند ربه، فهو أرفع من أن تؤثر فيه تلك النواميس المعروفة أو تسيطر عليه هاتيك القوانين المشاهدة إلى غير ذلك من المعجزات المأثورة والخوارق المشهورة، أما علمهم بحقائق الأشياء وما غيب عنا من أمور الآخرة وما يكون فيها، فهو علم يشبه علمنا بالمبصرات بالبصر والمسموعات بالسمع، بل حواسنا قد تخطئ ويقع الغلط والاشتباه في مدركاتها، بخلاف علمهم

(١) ص ٨ و ص٩ من الفلسفة والنبوة.

وما ينكشف لبصائرهم من الحقائق والمغيبات[1] ثم نلفتك بعد ذلك إلى ما تعرفه من تفاوت الناس في العلم وأن ما يكون قطعيا لبعض الناس يكون ظنا لبعض آخر، بل قد ينكره كل الإنكار لبعد ما بينه وبينه حتى لا يتأتى له أن يفهمه أو يسلمه.

وبالجملة: فاستعداد الرسول أشرف استعداد، وتكوينه أجمل تكوين، وبهذا كان مهيئا للرسالة والتلقى عن الملأ الأعلى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالته[2] فليس قلبه كبقية القلوب، وإنما هو قلب امتلأ بنور الله لكونه غارقا في عظمة الله بجلاله معرضا عما سواه.. وأين للفلاسفة (وغيرهم) ذلك النور، الذى كان يرى به ﷺ كما في الحديث الصحيح أصحابه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه، وفيه أنه رأى بيت المقدس عيانا وهو بمكة، ورأى ﷺ قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو يحفر خندق المدينة، ورأى ﷺ النجاشى بالحبشة حين مات وهو ﷺ بالمدينة، فخرج إلى المصلى فصلى عليه، إلى غير ذلك.

كل ذلك من أجل ما أودع فيه من النور الساطع والاستعداد الرفيع الذى أهله لخرق العادات بطريقة لا يكاد يعرفها الماديون ولا يعقلها غير الروحانيين، وكيف يدركون ببشريتهم الظلمانية أسرار ملكاته النورانية؟ ولنقرب الأمر بعض التقريب فنقول[3] «إن الروح من عالم آخر له نواميس أخرى يستوى فيها القريب والبعيد والظاهر والخفى، على أننا رأينا في عالم الماديات من العجائب ما يسهل عليك التصديق بذلك عن بصيرة واقتناع بعد ما ورد في دينك وشريعتك فإن أشعة «رونتجن» تحول الأجسام الكثيفة المعتمة إلى أجسام لطيفة شفافة، وتظهر ما يتخللها من العظام وغيرها، وأشعة (إف) التى بواسطتها يمكن كشف المعادن في باطن الأرض، وإحراق البارود في باطن البواخر ومكامن الحصون.. فما بالك بأشعة الله الذى خلق أشعة: رونتجن وإف، وعلم الإنسان ما لم يعلم؟ فلا بد أن تعرف أن للأنبياء قوى روحانية، اختصوا بها فلا توجد في غيرهم، ولذلك سمع سليمان عليه السلام كلام النملة، فما سمعه إلا بسمع الروح لا بسمع الجسم الطبيعى

(١) ص٩ و ص ١٠ من المصدر نفسه.
(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤.
(٣) ص ١٢ وما بعدها من كتاب الفلسفة والنبوة ورسالة محمد ﷺ للشيخ يوسف الدجوى.

(وكيف نستغرب ذلك وعلماء الحيوان الآن يثبتون للنحل وغيره حاسة لا توجد فينا، ويذكرون من أفاعيل النمل ما يعجب له الإنسان العاقل؟).

وقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ (يوسف:٩٤) فأحس بها وشمها من مسيرة أيام، فكيف يقاسون على غيرهم: فى شىء من الإحساس والعلم والإدراك؟ ولا غرو فقد قال تعالى في الحديث القدسى في حق عبده الذى تقرب إليه «فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به»(١).

وإجمال القول: إن نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صنف مخالف لسائر النفوس في قواها الظاهرة والباطنة فقوتهم وصفاتهم التابعة لها يجب أن تكون مخالفة لسائر النفوس والصفات التى في غيرهم، ومتى كان الروح الفاعل والجسم القابل في غاية الكمال، كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء، ولذا قيل: إن صفات الأنبياء وقواهم الذاتية من خوارق العادات، وإنه لو أمكن الناس أن يقفوا على كمال تلك النفوس لما احتاجوا في التصديق برسالتهم إلى معجزة، فإن فضيلة الصدق والأمانة -مثلا- إذا بلغت حد الكمال والإعجاز لا يقع معها كذب أو خيانة، وقد آمن كثير من الصحابة وغيرهم «حتى الأوربيين» بمعجزة «النعوت والصفات» غير ملتفتين لتلك الخوارق والمعجزات الظاهرة التى لا يعول عليها في إيمانه إلا العامة، وقد قال قائلهم في حقه ﷺ:

لو لم تكن فيه آيات مبينة
كانت خلائقه تنبيك بالخبر (٢)

ثم ابتدأ (الأستاذ الدجوى) يؤكد نظريته التى تقول: (إن صنف الأنبياء يتمتع بأرواح لها ملكاتها الفائقة، وقدراتها المعجزة وأنها تخالف سائر النفوس والأرواح في قواها الظاهرة والباطنة) بما نقله عن ابن خلدون في مقدمته فقال(٣):

وقد ذكر فيلسوف الإسلام العلامة ابن خلدون في مقدمته «أن النفوس البشرية على ثلاثة أصناف:

(١) من حديث طويل رواه البخارى في كتاب الرقاق عن أبى هريرة عن حديث قدسى.
(٢) ص ١٢ وما بعدها من الفلسفة والنبوة ورسالة محمد ﷺ للمرحوم الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى.
(٣) ص ١٤ وما بعدها من المصدر السابق.

صنف عاجز بالطبع [1]: عن الوصول إلى الإدراك الروحانى فينقطع منحطا إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعانى من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة، وترتيب خاص، يستفيدون بها العلوم التصورية والتصديقية الفكرية، وهذا في الأغلب هو من أن الإدراك البشرى الجسمانى - إليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم.

وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحانى، والإدراك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما خلق فيه من الاستعداد لذلك، فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التى هى نطاق الإدراك الأول البشرى، ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية، وهى وجدان كلها، لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها، وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم الدينية، والمعارف الربانية، وهى الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ[2].

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة إلى الملكية من الأفق الأعلى، ليصير في لمحة من اللمحات ملكا بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقه، وسماع الكلام النفسانى، والخطاب الإلهى في تلك اللمحة، هؤلاء هم الأنبياء صلوات الله عليهم، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا، بتلك الفطرة التى فطروا عليها، لا باكتساب ولا بصناعة. فإذا انسلخوا عن بشريتهم وتلقوا من الملأ الأعلى ما يتلقونه، عاجوا به[3] على المدارك البشرية، فتنزلوا به إلى قواها لحكمة التبليغ»[4].

ثم قال الأستاذ الدجوى: وبهذا كله نعرف سر ما نوجبه لهم[5] في علم التوحيد من أمهات الفضائل: كالأمانة، والصدق، والفطانة، وما يستحيل عليهم من السفاسف، والدنايا التى تجوز على غيرهم.

---

(١) أى عاجز بحكم طبيعته وفطرته.

(٢) حياة البرزخ: هى الحياة المتوسطة بين حياة الدنيا وحياة الآخرة وهى حياة القبر إلى يوم البعث والنشر.

(٣) عاجوا به: رجعوا به.

(٤) ص ٩٠ و ص ٩١ من مقدمة العلامة الشيخ عبد الرحمن بن خلدون جـ٢ ط. الشعب فبراير سنة ١٩٧٠، وقد نقل الشيخ الدجوى نفس النص مع تصرف يسير فيه على صفحات ١٤ و ١٥ و١٦ من رسالته في الفلسفة والنبوة ط. الأزهر ربيع الأول سنة ١٣٨٩هـ.

(٥) أى للأنبياء.

من أعلام نبوة المصطفى ﷺ

والدلائل المتظاهرة على صدقه

يقول الإمام البيهقي: (١)

«أما النبى المصطفى والرسول المجتبى، المبعوث بالحق إلى كافة الخلق من الجن والإنس: أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، خاتم النبيين ورسول رب العالمين صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين - فإنه أكثر الرسل آيات وبينات.. (حتى) ذكر بعض أهل العلم: أن أعلام نبوته ﷺ تبلغ ألفا.

١- فأما العلم الذى اقترن بدعوته ولم يزل يتزايد أيام حياته ودام في أمته بعد وفاته فهو القرآن العظيم المعجز المبين وحبل الله المتين الذى هو كما وصفه به من أنزله فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت،٤١،٤٢).

وقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة،٧٧-٨٠).

وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج،٢١،٢٢).

وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (آل عمران،٦٢).

وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام،١٥٥).

وقال: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس،١١-١٦).

وقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء،٨٨).

---

(١) ص ١٨ وما بعدها من كتاب (المدخل إلى دلائل النبوة) للإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي المولود سنة ٣٨٤هـ ط - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ بتحقيق السيد أحمد صقر.

فأبان جل جلاله: أنه أنزله على وصف مباين لأوصاف كلام البشر لأنه منظوم وليس بمنثور ونظمه: ليس نظم الرسائل ولا نظم الخطب ولا نظم الأشعار ولا هو كأسجاع الكهان. واعلم: أن أحدا لا يستطيع أن يأتى بمثله ثم أمره أن يتحداهم على الإتيان به أن ادعوا أنهم يقدرون عليه أو ظنوه: فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود:١٣).

ثم نقصهم تسعا فقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة:٢٣). فكان من الأمر ما يصفه.

غير أن من قبل ذلك دلالة وهى: أن النبى ﷺ كان غير مدفوع عند الموافق والمخالف عن الحصانة والمتانة وقوة العقل والرأى.

ومن كان بهذه المنزلة وكان مع ذلك قد انتصب لدعوة الناس إلى دينه: لم يجز بوجه من الوجوه أن يقول للناس: إيتوا بسورة من مثل ما جئتكم به من القرآن ولن تستطيعوه فإن أتيتم به فأنا كاذب وهو يعلم من نفسه أن القرآن منزل عليه ولا يأمن أن يكون في قومه من يعارضه وأن ذلك (إن كان) يبطل دعوته.

فهذا: إلى أن يذكر ما بعده - دليل قاطع على أنه لم يقل للعرب: إيتوا بمثله إن استطعتموه ولن تستطيعوه إلا وهو واثق متحقق أنهم لا يستطيعونه ولا يجوز أن يكون هذا اليقين - وقع له إلا من قبل ربه الذى أوحى إليه به فوثق بخبره[1].

وأما ما بعد هذا فهو أن النبى ﷺ قال لهم: إيتونى بسورة من مثله إن كنتم صادقين فطالت المهلة والنظرة لهم في ذلك وتواترت الوقائع والحروب بينه وبينهم فقتلت صناديدهم وسبيت ذراريهم ونساؤهم، وانتهبت أموالهم ولم يتعرض أحد لمعارضته فلو قدروا عليها لافتدوا بها أنفسهم وأولادهم وأهاليهم وأموالهم. ولكان الأمر في ذلك قريبا سهلا عليهم إذ كانوا أهل لسان وفصاحة وشعر وخطابة.

فلما لم يأتوا بذلك ولا ادعوه: صح أنهم كانوا عاجزين عنه.

---

(١) ص ٢١ وما قبلها من (المدخل إلى دلائل النبوة) للإمام البيهقى بتحقيق السيد أحمد صقر ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠.

وفي ظهور عجزهم: بيان أنه في العجز مثلهم إذ كان بشرا مثلهم لسانه لسانهم وعاداته عاداتهم وطباعه طباعهم وزمانه زمانهم وإذا كان ذلك وقد جاء بالقرآن: وجب القطع بأنه من عند الله تعالى جده. لا من عند غيره[١].

أقول: وبعد كل هذا الذى قدمه الإمام البيهقى: في كتابه (المدخل) عن واحد من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم: ابتدأ يعرض ما ورد من شكوك وما قد أثير من أوهام وكر بالرد على كل ذلك بما يدحضه ويبطله: فحكى: نقلا عن الإمام أبى عبد الله الحليمى[٢] في المنهاج: هذه الشبهات والرد عليها..

فقال: فإن ذكروا (سجع مسيلمة) فكل ما جاء به مسيلمة لا يعدو أن يكون بعضه محاكاة وسرقة وبعضه كأساجيع الكهان وأراجيز العرب وقد كان النبى ﷺ يقول ما هو أحسن لفظا وأقوم معنى وأبين فائدة ثم لم تقل له العرب: من أنت؟ تتحدانا على الإتيان بمثل القرآن وتزعم أن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لم يقدروا عليه ثم قد جئت بمثله مفترى - إنه ليس من عند الله وذلك قوله:

أنا النبى لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب[٣]

وقوله:

تالله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا[٤]

وقوله:

اللهم إن العيش عيش الآخره ... فارحم الأنصار والمهاجره[٥]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المنهاج لأبى عبد الله الحليمى لوحة ١٠٩.

(٣) قاله ﷺ يوم حنين وأخرجه البخارى ومسلم.

(٤) قاله الرسول يوم الخندق حين شارك المسلمين في حفره وأخرجه البخارى ومسلم.

(٥) قاله أيضا ﷺ يوم الخندق وأخرجه البخارى ومسلم في أبواب الجهاد والسير.

وقوله: «تعس عبد الدينار والدرهم وعبد الخميصة[١] إن أعطى منها رضى وإن لم يعط سخط تعس وانتكس[٢] وإذا شيك فلا انتقش[٣]». فلم يدع أحد من العرب أن شيئا من هذا يشبه القرآن وأن فيه كسرا لقوله:

ونقل الإمام البيهقى عن الأستاذ أبى منصور محمد بن الحسن بن أبى أيوب معللا عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم.. أعظم الأعلام على نبوة محمد ﷺ فقال[٤]:

«يجوز أن يكون هذا النظم قد كان فيما بينهم فعجزوا عنه عند التحدى فصار معجزة: لأن إخراج ما في العادة عن العادة نقض للعادة. كما أن إدخال ما ليس في العادة في الفعل نقض للعادة: وأيهما كان فقد ظهر بذلك معجزته، واعترفت العرب بقصورهم عنه، وعجزهم عن الإتيان بمثله».

أقول: ومن أجل تقييم هذا الوجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم (أعظم الأعلام دلالة على نبوة المصطفى ﷺ) والكشف عن قيمة دلالته على صدق النبوة بين سائر دلالات المعجزات التى كانت للأنبياء قبله: يحكى الإمام البيهقى عن أبى سليمان الخطابى: عن بعض أهل العلم قوله[٥]. إن الذى أورده المصطفى ﷺ على العرب من الكلام الذى أعجزهم عن الإتيان بمثله، أعجب في الآية وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، لأنه أتى أهل البلاغة وأرباب الفصاحة ورؤساء البيان والمتقدمين في الألسن، بكلام مفهوم المعنى عندهم فكان عجزهم أعجب من عجز من شاهد المسيح عند إحياء الموتى لأنهم لم يكونوا يطيقون فيه ولا في إبراء الأكمه والأبرص ولا يتعاطون علمه وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة: فدل أن العجز عنه إنما كان لأن يصير علما على رسالته وصحة نبوته: وهذا حجة قاطعة وبرهان واضح.

(١) هو ثوب خز أو صوف معلم.
(٢) النكس أن يخر على رأسه.
(٣) معناها إذا أصابته شوكة فلا وجد من يخرجها منه بالنقاش.
(٤) ص ٢٤ من المدخل إلى دلائل النبوة.
(٥) ص ٢٥ من (المدخل إلى دلائل النبوة).

ثم يقول الإمام البيهقى[1] وفى القرآن وجهان آخران من الإعجاز.

أحدهما: ما فيه من الخبر عن الغيب وذلك في قوله عز وجل: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة:٣٣).

وقوله: (وعدا لأهل الإيمان).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (النور:٥٥).

وقوله في الروم: ﴿وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ (الروم:٣).

وغير ذلك من وعد الله إياه بالفتوح في زمانه وبعده.. ثم كان كما أخبر.. ومعلوم أنه ﷺ كان لا يعلم النجوم ولا الكهانة ولا يجالس أهلها.

والآخر: ما فيه الخبر عن قصص الأولين من غير خلاف ادعى عليه فيما وقع الخبر عنه ممن كان من أهل تلك الكتب ومعلوم: أنه ﷺ كان أميا لا يقرأ كتابا ولا يخطه ولا يجالس أهل الكتب للأخذ عنهم. وحين زعم بعضهم (إنما يعلمه بشر) رد الله ذلك عليهم فقال:

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل:١٠٣).

فزعم أهل التفسير أنه كان لابن الحضرمى غلامان نصرانيان يقرآن كتابا لهما بالرومية وقيل بالعبرانية فكان ﷺ يأتيهما فيحدثهما ويعلمهما فقال المشركون: إنما يتعلم محمد منهما فأنزل الله عز وجل هذه الآية: (ردا).

وقد علق (الحليمى) على ذلك فقال: «من تعلق بمثل هذا (الاتهام) الضعيف لم يسكت عن شيء يتهمه به: فدل على أنه لو اتهموه بشىء مما نفيناه عنه لذكروه، ولم يسكتوا عنه».

---

(١) الموضع السابق من المصدر السابق نفسه.

قال البيهقي[1]: ومن وقف على ما أخذه العلماء من القرآن على إيجازه من أنواع العلوم، واستنبطوه من معانيه وكتبوه ودونوه في كتب لعلها تزيد على ألف مجلد - علم: أن كلام البشر لا يفيد ما أفاد القرآن وعلم أنه كلام رب العزة. فهذا بين واضح لمن هدى إلى صراط مستقيم[2].

ثم إن لنبينا ﷺ وراء القرآن من الآيات الباهرة. والمعجزات الظاهرة ما لا يخفى وأكثر من أن يحصى.

٢- فمن دلائل نبوته التى استدل بها أهل الكتاب على صحة نبوته ما وجدوه في التوراة والإنجيل، وسائر كتب الله المنزلة من ذكره ونعته وخروجه بأرض العرب وإن كان كثير منهم حرفوها عن مواضعها[3].

يقول الإمام الأفضل أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى في كتابه الملل والنحل[4]:

«واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة نبينا المصطفى ﷺ: حقا وكون صاحب الشريعة صادقا، بله ما حرفوه وغيروه وبدلوه: إما تحريفا من حيث الكتابة والصورة. وإما تحريفا من حيث: التفسير والتأويل.

وأظهرها: ذكر إبراهيم ﷺ وابنه إسماعيل ودعاؤه في حقه وفي حق ذريته وإجابة الرب تعالى إياه: «إنى باركت على إسماعيل وأولاده وجعلت فيهم الخير كله وسأظهرهم على الأمم كلها وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتى» واليهود: معترفون بهذه القضية إلا أنهم يقولون: أجابه بالملك دون النبوة

(١) ص ٢٦ من كتاب (المدخل إلى دلائل النبوة).
(٢) ص ٢٦ من المدخل إلى دلائل النبوة للإمام البيهقي.
(٣) ص ٢٧ من المصدر السابق.
(٤) القسم الأول من الملل والنحل للشهرستانى بتخريج أستاذنا المرحوم الدكتور محمد بن فتح الله بدران. ص ١٩٣ وما بعدها من سلسلة الدراسات الفلسفية والأخلاقية.

والرسالة[1].. وقد رد (الإمام الشهرستانى) على هذا التأويل الفاسد للنصوص بما يفحمهم ويخرس ألسنتهم ويفضح ضلالهم فقال: فى (ص ١٩٤) من كتابه الرائع: (الملل والنحل جـ١ تخريج المرحوم الدكتور بدران). (وقد ألزمتهم أن الملك الذى سلمتم: أهو ملك بعدل وحق، أم لا؟ فإن لم يكن ملك بعدل وحق فكيف يمن على إبراهيم عليه السلام بملك في أولاده وهو جور وظلم؟ وإن سلمتم العدل والصدق من حيث الملك. فالملك يجب أن يكون صادقا على الله تعالى فيما يدعيه ويقوله.. وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق؟ إذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى ففى تكذيبه تجويره وفى التجوير دفع المنة بالنعمة وذلك: خلف.

وقد ورد في التوراة (نفسها) إن الله تعالى: جاء من طور سيناء وظهر بساعير وعلن بفاران. و (ساعير): جبال بيت المقدس: التى كانت مظهر عيسى عليه السلام. و (فاران): جبل مكة: التى كانت مظهر المصطفى ﷺ.

ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار الربانية في: الوحى، والتنزيل، والمناجاة والتأويل، على مراتب ثلاث: مبدأ، ووسط، وكمال.

- والمجىء: أشبه بالمبدأ. والظهور: أشبه بالوسط. والإعلان: أشبه بالكمال.

عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل: بالمجىء من (طور سيناء).

وعن طلوع الشمس: بالظهور على (ساعير).

---

(١) إنما اتجهت اليهود إلى تأويل هذا النص هكذا ليتفق النص مع دعاواهم ومعتقداتهم الدينية الفاسدة ومنها: أن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهى ابتدأت بموسى عليه السلام وتمت به: فلم تكن قبله شريعة إلا حدود عقلية ولا تكون بعد موسى شريعة لأنهم لا يجوزون النسخ لأنه في رأيهم بداء ولا يجوز البداء على الله تعالى: لأن البداء معناه: ظهور بعد سبق خفاء. وهو عين الجهل. وهو أمر لا تليق نسبته إلى الله سبحانه لأنه نقص والنقص على الله محال (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) ينظر ص ١٩٢ و ص١٩٣ من (القسم الأول) من المصدر السابق. وقد أجاب الشهرستانى عليهم فقال: ما خلاصته: إن الشريعة التالية لما قبلها ليست إبطالا متفرعا عن البداء والظهور بعد الخفاء ولكنها في حقيقتها تكميل وترقية من درجة إلى درجة لأن النسخ ليس إبطالا للشريعة في ذاته بل هو تكميل وترقية. وأضاف مستدلا فقال: إن في التوراة نفسها من الأحكام التى طرأ عليها النسخ ما يتعلق منها بأشخاص أو بأزمان. فإذا انتهى الزمان لم يبق ذلك لا محالة: ينظر ص ١٩٥ من المصدر السابق.

وعن البلوغ إلى درجة الكمال: بالاستواء والإعلان على (فاران).

وفي هذه الكلمات: إثبات نبوة المسيح عليه السلام، والمصطفى محمد ﷺ(١).

٣- ومن أعلام نبوته: ما روى عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله ابن عمرو بن العاص فقلت له: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ (وكان رضي الله عنه له مطالعات فيها) فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وحرزا للأميين. أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء: أن يقولوا: لا إله إلا الله وليفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا(٢).

٤- ومن أعلام نبوته: ما شهد به علماء الأديان السابقة كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار الذين كتب الله لهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ عن علم: فقد روى البخاري بسنده عن ابن سلام أنه كان يقول: «إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ. وساق نحو الحديث السابق»(٣).

قال عطاء بن يسار: وأخبرني (الصحابي أبو واقد) الليثي أنه سمع كعب الأحبار يقول مثل ما قال ابن سلام(٤) وزاد ابن سعد في طبقاته جـ١ ص٣٦١ أن كعبا بلغه ذلك فقال: «صدق عبد الله بن سلام».

٥- ومن أعلام نبوته: ما حدث بين أيام مولده ومبعثه ﷺ من الأمور الغريبة والأكوان العجيبة القادحة في سلطان أئمة الكفر والموهية لكلمتهم، المؤيدة لشأن العرب المنوهة بذكرهم: كأمر الفيل وما أحل الله بخزيه من العقوبة والنكال(٥).

---

(١) المصدر السابق من الملل والنحل.
(٢) رواه البخاري في كتاب كراهية الصخب في الأسواق ورواه البيهقي جـ١ ص ٣٣٢ في دلائل النبوة ص ٣٢٠.
(٣) رواه البخاري في كتاب البلوغ ورواه البيهقي جـ١ ص ٣٣٢ في الدلائل.
(٤) رواه البخاري في كتاب البلوغ ورواه البيهقي جـ١ ص ٣٣٢ في الدلائل.
(٥) ص ٢٧ من المدخل إلى دلائل النبوة.

والبيهقى: الذى ذكر ذلك في كتابه (المدخل إلى دلائل النبوة) يشير إلى بعض مما ذكره في دلائل النبوة ليسنده عن ابن عباس قال[١]: «اقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب فقال لملكهم ما جاء بك إلينا؟، الا بعثت فنأتيك بكل شىء أردت؟ فقال: أخبرت بهذا البيت الذى لا يدخله أحد إلا أمن.. فجئت أخيف أهله. فقال: إنا نأتيك بكل شىء تريد فارجع فأبى إلا أن يدخله وانطلق يسير نحوه.. وتخلف عبد المطلب فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ثم قال:

اللهم إن لكل إله ... حلالا فامنع حلالك

لا يغلبن محالهم ... أبدا محالك

اللهم فإن فعلت ... فأمر ما بدا لك

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل[٢] التى قال الله تبارك وتعالى في شأنها: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[٣]. قال: فجعل الفيل يعج عجا[٤] ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[٥] مَّأْكُولٍ﴾[٦].

٦- ومن أعلام نبوته: خمود نار فارس وسقوط شرفات إيوان كسرى[٧] وغيض ماء بحيرة ساوة. ورؤيا الموبذان وغيرها[٨].

والبيهقى: يشير بذلك إلى ما رواه بسنده في كتاب الدلائل: عن هانئ المخزومى عن أبيه قال: «لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس[٩]

---

(١) دلائل النبوة ص٦١، ص ٦٢ جـ١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
(٢) أبابيل: يعنى فرق وهو جمع لا واحد له ص ١٢ من مختار القاموس للزاوى.
(٣) سجيل: حجارة طبخت بنار جهنم وكتب فيها اسم القوم ص٢٩١ المصدر السابق.
(٤) يعج عجا: يصيح ويرفع صوته. ص ٤٠٧ من المصدر السابق.
(٥) كعصف مأكول: أى كزرع أكل حبه وبقى نبته ص ٤٢٤ المصدر نفسه.
(٦) روى الحديث بسنده في المستدرك جـ٢ ص٥٣٥ وعقب عليه الحاكم بقوله هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وذكره البيهقى في الدلائل ص ٦١و ٦٢.
(٧) الإيوان هو الصفة العظيمة ص ٣٥ مختار القاموس للزاوى.
(٨) ص ٢٧ من المدخل إلى دلائل النبوة.
(٩) مادة الرجس: معناها العمل القبيح أو هو العقاب عليه.

إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغاضت بحيرة ساوة ورأى المويذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا: قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها. فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك وتصبر عليه تشجعا ثم رأى أن لا يدخر ذلك عن وزرائه ومرازبته حين عيل صبره فلما اجتمعوا عنده إذ أتاه كتاب بخمود نار فارس فازداد غما إلى غمه ثم أخبرهم بما هاله. ثم قص المويذان عليه رؤياه في الإبل قال: أى شيء يكون هذا يا مويذان؟ وكان أعلمهم في أنفسهم. قال: حدث يكون من ناحية العرب[١].

٧- ومنها: ما سمعوه من الهواتف الصارخة بنعوته ﷺ وأوصافه والرموز المتضمنه لبيان شأنه. وما وجد من الكهنة والجن في تصديقه وإشارتهم على أوليائهم من الإنس بالإيمان به[٢].

٨- ومن أعلام نبوته: انتكاس الأصنام المعبودة وخرورها لوجوهها من غير دافع لها عن أمكنتها[٣].

٩- هذا إلى سائر ما روى في الأخبار المشهورة من ظهور العجائب فى ولادته وأيام حضانته وبعدها[٤]، ويشير البيهقى بذلك إلى ما رواه الإمام أحمد في مسنده (جـ١ ص ٢٦٢ طبع الحلبى) وذكره البيهقى نفسه في الدلائل[٥] عن أبى أمامة قال: قيل يا رسول الله ما كان بدو أمرك؟ قال: «دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت به قصور الشام».

وإلى ما رواه في الدلائل بسنده عن أنس[٦] أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام ذات يوم وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه

---

(١) ص ٦٧ و ٦٨ من دلائل النبوة للبيهقى جـ١.
(٢) ص ٢٧ من المدخل إلى دلائل النبوة ط. المجلس الأعلى.
(٣) الموضع السابق من المصدر نفسه.
(٤) الموضع السابق من المصدر السابق.
(٥) جـ١ ص ٢١.
(٦) ص ٣٥٠ و ٣٥١ من الجزء الأول.

واستخرج القلب ثم شق القلب فاستخرج علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه وأعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعنى ظئره[1] فقالوا: إن محمدا قد قتل فجاءوا وهو منتقع اللون فقال أنس: فقلت أرى أثر المخيط في صدره قال البيهقى: رواه مسلم في الصحيح[2] عن شيبان بن فروخ.

ومن أعلام نبوته ﷺ: ما أشار إليه الإمام البيهقى فقال: ثم إن له وراء هذه الآيات المعجزات:

١٠- انشقاق القمر[3]: فقد انشق القمر شقين متباعدين بحيث كان الجبل بينهما. حدث ذلك في مكة: لما سألته قريش آية وحديثه مشهور متواتر[4].

١١- ومنها حنين الجذع[5]: وهو أنه كان ﷺ قبل أن يصنع له المنبر يخطب عنده فلما صنع له المنبر انتقل إليه، فسمع له كل من كان في المسجد حنينا وصوتا عظيما حتى كاد أن ينشق أسفا على فراقه ﷺ فضمه ﷺ إليه فصار يئن أنين الصبى الذى تضمه أمه إليها وتسكته عن بكائه ثم قال ﷺ: إن شئت أردك إلى الحائط[6] الذى كنت فيه تنبت لك عروقك ويكمل لك خلقك ويتجدد لك خوص وثمر، وإن شئت أغرست في الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك ثم أصغى إليه ليسمع ما يقول: فقال بصوت يسمعه من يليه: بل تغرسنى في الجنة فيأكل منى أولياء الله، وأكون فى مكان لا بلاء فيه. فقال ﷺ: قد فعلت ثم قال ﷺ: اختار دار البقاء على دار الفناء وأمر به فدفن تحت المنبر[7] وحديثه هذا مشهور متواتر.

١٢- ومنها خروج الماء من بين أصابعه حتى توضأ منه ناس كثير[8] ومنها

---

(١) أى مرضعته.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان.
(٣) ص٢٧ من المدخل إلى دلائل النبوة للبيهقى.
(٤) متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس.
(٥) المدخل إلى دلائل النبوة للبيهقى ص ٢٧.
(٦) هو البستان.
(٧) حديث حنين الجذع: رواه البخارى من حديث جابر وسهل بن سعد.
(٨) المدخل ص ٢٧.

تسبيح الطعام[١] فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نأكل عند النبى ﷺ فسمع تسبيح الطعام[٢].

١٣- ومنها إجابة الشجرة إياه حين دعاها[٣].

١٤- ومنها تكليم الذراع المسمومة إياه[٤]، وقد علق العراقى في تخريجه لأحاديث (الإحياء) فقال: حديث أنه أطعم السم فمات الذى أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين وكلمه الذراع المسموم، رواه أبو داود من حديث جابر. كما جاء فى الصحيحين (البخارى ومسلم) من حديث أنس[٥] بمعناه.

١٥- ومنها شهادة الذئب والضب والرضيع والميت له بالرسالة[٦] فقد كان النبى في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابى وقد صاد ضبا فقال الأعرابى من هذا؟ قالوا: نبى الله.. فأقسم أنه لا يؤمن به إلا إذا آمن الضب وطرحه بين يدى النبى فقال له ﷺ: يا ضب.. من تعبد؟ فأجابه بصوت يسمعه الناس جميعا: أعبد الذى في السماء عرشه قال: فمن أنا؟ قال الضب: أنت رسول رب العالمين وخاتم النبيين وقد أفلح من صدقك وخاب من كذبك فأسلم الأعرابى.

١٦- ومنها ازدياد الطعام والماء بدعائه حتى أصاب منه ناس كثير[٧] أقول: ازدياد الطعام والماء بدعائه أمر تكرر كثيرا. يقول (الإمام الغزالى في بيان معجزاته ﷺ): خرق الله العادة على يده غير مرة[٨].. فأطعم النفر الكثير فى منزل جابر[٩] وأطعم النفر الكثير في منزل أبى طلحة[١٠] ومرة أطعم ثمانين من

(١) المصدر السابق.
(٢) المعجم الصغير للطبرانى ص ٢٢٧ جـ١ رواه البخارى.
(٣) المدخل إلى دلائل النبوة للبيهقى ص ٢٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) هامش ص ١٣٣٦ جـ٧ من (الإحياء) ط الشعب.
(٦) المدخل إلى دلائل النبوة ص ٢٧.
(٧) ص ٢٧ المصدر السابق.
(٨) ص ١٣٣٢ جـ٧ من (الإحياء) ط الشعب.
(٩) ذكر العراقى في تخريجه له أنه متفق عليه من حديث جابر.
(١٠) متفق عليه من حديث أنس بن مالك.

أربعة أمداد شعير وعناق وهو من أولاد المعز(١) ومرة أطعم أكثر من ثمانين رجلا من اقراص شعير حملها أنس في يده(٢) ومرة أطعم أهل الجيش من تمر ساقته (بنت بشير) في يدها فأكلوا كلهم حتى شبعوا وفضل لهم(٣).

١٧- ومنها نبع الماء من بين أصابعه ﷺ فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش وتوضأوا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط ﷺ يده فيه(٤).

١٨- ومن أعلام نبوته ﷺ ما كان من حلبه الشاة التى لم ينز عليها الفحل ونزول اللبن لها(٥).

فقد روى الإمام أحمد بن حنبل بإسناد جيد عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ مسح ضرع شاة حائل لا لبن لها فدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود كما فعل ذلك ﷺ مرة أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية(٦) (وهو في طريق الهجرة إلى المدينة).

١٩- ومنها ما كان من إهراقه وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشتا بالماء: فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء(٧) وقد علق العراقى في تخريجه لأحاديث الإحياء فقال: رواه مسلم من حديث معاذ بقصة عين تبوك. ومن حديث سلمة بن الأكوع بقصة عين الحديبية.

٢٠- ومنها: أمره ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربضة البعير (أى موضع بروكه) فزودهم كلهم منه وبقى منه فحبسه(٨،٩).

---

(١) ذكره البيهقى في دلائل النبوة من حديث جابر وفيه أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلاثمائة.
(٢) رواه مسلم عن انس.
(٣) قال العراقى في تخريجه رواه البيهقى في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق.
(٤) متفق عليه من حديث انس.
(٥) ص ٢٨ من المدخل إلى دلائل النبوة للبيهقى.
(٦) ص ١٣٣٧ جـ٧ من الإحياء ط الشعب.
(٧) ص ١٣٣٣ من المصدر السابق.
(٨) المصدر السابق.
(٩) رواه أحمد عن النعمان ورواه أبو داود عن ركين بن سعيد من غير بيان لعددهم.

٢١- ومنها: رميه ﷺ جيش العدو بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[١] (الأنفال:١٧).

٢٢- ومنها: أنه ﷺ خرج على مائة من قريش[٢] ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه[٣].

٢٣- ومنها: رده ﷺ عين قتادة بن النعمان حين سالت على خده. وهو رضي الله عنه يتقى بوجهه السهام عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد. فأخذها رضي الله عنه بيده لرسول الله ﷺ فلما رآها دمعت عينه فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت رددتها ودعوت الله فلم تفقد شيئا. فقال قتادة أخاف أن أعير. ولكن ردها واسأل الله لى الجنة فردها ودعا الله له فكانت أحسن عينيه[٤]، وقد ذكر هذه المعجزة الإمام الغزالى في الإحياء[٥].

٢٤- ومنها: أنه تفل في عين على رضي الله عنه وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية[٦].

٢٥- ومنها: أنه أصيبت رجل بعض أصحابه ﷺ فمسحها بيده فبرأت من حينها[٧].

٢٦- وقل زاد جيش كان معه ﷺ فدعا بجميع ما بقى فاجتمع شيء يسير جدا فدعا فيه بالبركة ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء في العسكر إلا ملئ من ذلك[٨].

---

(١) ص ١٣٣٣ جـ٧ من الإحياء وقد علق العراقى بهامش الصفحة فقال: الحديث رواه مسلم عن سلمة ابن الأكوع. ورواه ابن مردويه مع ذكر الآية في تفسيره عن جابر وابن عباس.

(٢) وحدث ذلك ليلة هجرته.

(٣) ذكره ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه ذكر عدد.

(٤) حديث ندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت اصح عينيه وأحسنهما روى الحديث عن قتادة بن النعمان والبيهقى وأبو نعيم في دلائل النبوة.

(٥) ص ١٣٢٧ جـ٧ ط. الشعب.

(٦) المصدر السابق. والحديث متفق عليه من رواية على وسهل بن سعد أيضا.

(٧) المصدر السابق وحديث هذه المعجزة رواه البخارى في قصة قتل أبى رافع.

(٨) المصدر السابق والحديث متفق عليه رواه سلمة بن الأكوع.

٢٧- ومن أعلام نبوته ﷺ: أنه أتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله ﷺ فحيل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر «بغدة» وهلك أربد بصاعقة أحرقته(١).

٢٨- ومن أعلام نبوته ﷺ: ما حدث فى طريق هجرته ﷺ لقد أتبعه سراقة ابن مالك (رغبة في جائزة قريش) فساخت قدما فرسه في الأرض وأتبعه دخان حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس.

ذكره الغزالى في إحيائه وهو بصدد بيان معجزاته ﷺ والحديث: متفق عليه من رواية أبى بكر الصديق رضي الله عنه.

٢٩- ومن أعلام نبوته ﷺ: دعوته ﷺ نصارى نجران إلى المباهلة (أى الابتهال إلى الله أن ينزل غضبه ولعنته على الكاذبين) فامتنعوا فعرفهم ﷺ أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا، فعلموا صحة قوله فامتنعوا(٢) ذلك أن النبى ﷺ لما أورد الدلائل على (نصارى نجران) ثم لم يكن منهم إلا أن أصروا على جهلهم قال لهم ﷺ: إن الله تعالى أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم: فقالوا يا أبا القاسم: بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك. فلما رجعوا قالوا (للعاقب): (وكان ذا رأيهم وصاحب المشورة فيهم) ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوته وقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم عيسى عليه السلام والله ما باهل قوم نبيا إلا هلكوا وإن أبيتم إلا ألف دينكم: فوادعوا الرجل وانصرفوا. فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضنا الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى رضي الله عنه خلفهما وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمنوا.. فقال أسقفهم: يا معشر النصارى: إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا فأذعنوا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية: ألفى حلة حمراء وثلاثين درعا من حديد فقال ﷺ: «لو باهلوا لمسخوا

(١) ص ١٣٣٦ من المصدر السابق والحديث رواه الطبرانى في الأوسط والأكبر عن ابن عباس.

(٢) ذكر هذا العلم من أعلام نبوته ﷺ العلامة رحمة الله بن خليل الرحمن الهندى في كتابه إظهار الحق ص ١٦٥ جـ٢ ط. المطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٦هـ. وذكره الغزالى في إحيائه ص ١٣٣٦ جـ٧ ط. الشعب الحديث رواه البخارى عن ابن عباس.

قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر»[١] قال الشيخ العلامة رحمة الله الهندى في كتابه (إظهار الحق) معقبا على ذلك: وهذه الواقعة (مع نصارى نجران) دلت على نبوته ﷺ بوجهين:

الأول: أنه ﷺ خوفهم بنزول العذاب عليهم ولو لم يكن واثقا بذلك لكان ذلك منه سعيا في إظهار كذب نفسه: لأنه لو باهل ولم ينزل العذاب ظهر كذبه، ومعلوم أنه كان من أعقل الناس فلا يليق به أن يعمل عملا يفضى إلى كذبه فلما أصر على ذلك علمنا أنه أصر عليه لكونه واثقا بوعد الله.

الثانى: أن القوم كانوا يبذلون النفوس والأموال في المنازعة مع الرسول ﷺ فلو لم يعرفوا أنه نبى لما تركوا مباهلته[٢].

٣٠- ومن أعلام نبوته ﷺ: أنه ﷺ دعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه وهذا مذكور في سورة يقرأ بها في جميع جوامع الإسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة جهرا تعظيما للآية التى فيها[٣].

والإمام الغزالى الذى أورد هذه المعجزة في إحيائه يشير إلى قول الله تعالى خطابا لنبيه ﷺ في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجمعة:٦-٨).

٣١- ومنها: أنه دعا شجرتين فأتياه واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا[٤].

---

(١) نقلا عن الجزء الثانى من كتاب إظهار الحق لرحمة الله الهندى ص ١٦٥ و١٦٦ المؤلف سنة ١٢٨٠هـ.

(٢) ص ١٦٦ المصدر السابق.

(٣) ص ١٣٢٤ جـ٧ من إحياء علوم الدين للغزالى ط. الشعب والحديث في البخارى عن ابن عباس بلفظ لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا.

(٤) ص ١٣٣٥ جـ٧ من إحياء علوم الدين ط. الشعب والحديث الذى حكى هذه المعجزة رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن على بن مرة والسند صحيح.

٣٢- ومنها: أن الحكم بن العاص حكى مشيته مستهزئا به فقال ﷺ: كذلك فكن. فلم يزل يرتعش حتى مات[١].

٣٣- ومن أعلام نبوته ﷺ: ما كان من إخباره عن الكوائن فوجد تصديقه في زمانه وبعده[٢].

لقد أخبر ﷺ بالغيوب: فأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة[٣،٤] وبأن عمار تقتله الفئة الباغية[٥،٦].

وأخبر ﷺ عن رجل قاتل في سبيل الله: أنه من أهل النار. فظهر ذلك: بأن ذلك الرجل قتل نفسه وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف البتة من وجوه تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه[٧].

وأنذر رسول الله ﷺ سراقة بن مالك بأن سيوضع في ذراعيه سوارى كسرى فكان كذلك[٨].

ومن ذلك ما رواه الطبرانى بسنده عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: إذا هلك كسرى فلا كسرى وإذا هلك قيصر فلا قيصر، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل[٩].

---

(١) ص ١٣٣٨ جـ٧ ط. الشعب من الإحياء والحديث الذى حكى هذه المعجزة الخارقة رواه البيهقى في دلائل النبوة من حديث هند بن خديج وصححه بإسناد جيد.
(٢) ص ٢٨ من المدخل إلى دلائل النبوة للبيهقى ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
(٣) ص ١٣٣٤ من الإحياء جـ٧ ط. الشعب.
(٤) إخباره ﷺ بأن عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى.
(٥) ص ١٣٣٤ جـ٧ من الإحياء.
(٦) حديث إخباره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية رواه مسلم من حديث أبى قتادة وأم سلمة ورواه البخارى من حديث أبى سعيد.
(٧) ص ١٣٣٤ جـ٧ ط. الشعب من الإحياء.
(٨) المصدر السابق والحديث متفق عليه من رواية أبى بكر الصديق ﷺ في قصة الهجرة إلى المدينة.
(٩) ص ٢٤٥ جـ١ من المعجم الصغير للطبرانى نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة سنة ١٩٦٨.

واخبر ﷺ بمقتل (الأسود العنسى) الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن واخبر بمن قتله(١).

واخبر ﷺ أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين فكان كما قال(٢).

فقد روى الطبرانى بسنده عن أبى بكرة(٣) قال رأيت رسول الله ﷺ على المنبر ومعه الحسن بن على وهو يقول: إن ابنى هذا سيد وإن الله عز وجل سيصلح على يديه بين فئتين عظيمتين من المسلمين. وقال ﷺ لنفر من أصحابه مجتمعين: أحدكم في النار ضرسه مثل أحد، فماتوا كلهم على استقامة وارتد منهم واحد فقتل مرتدا(٤)، (وهو ابن عنفرة).

وقال ﷺ لآخرين منهم: آخركم موتا في النار فسقط آخرهم موتا في النار فاحترق فيها(٥).

وقد روى البيهقى أن آخرهم موتا هو (سمرة بن جندب) وقال ابن عبد البر أنه سقط في قدر مملوءة ماء حارا فمات. ذكره العراقى في هامش الإحياء عند ذكر هذه المعجزة التى هى من أعلام نبوته ﷺ.

وزويت له ﷺ الأرض فأرى مشارقها ومغاربها وأخبر أن ملك أمته سيبلغ ما رؤى له منها فكان كذلك(٦).

وأخبر ﷺ بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك(٧) والحديث متفق عليه من رواية أم حرام.

---

(١) ص ١٣٣٥ جـ٧ من الإحياء ط. الشعب والحديث عن ذلك مذكور في السير والذى قتله هو فيروز الديلمى.

(٢) ص ١٣٣٤ من المصدر السابق والحديث رواه البخارى وغيره عن أبى بكرة.

(٣) ص ٢٧١ جـ١ من المعجم الصغير.

(٤) ص ١٣٣٥ جـ٧ من الإحياء وقد ذكر الحديث الدارقطنى عن أبى هريرة.

(٥) المصدر السابق وقد رواه الطبرانى والبيهقى في دلائل النبوة من حديث ابن محذورة.

(٦) ص ١٣٣٧ من المصدر السابق والحديث رواه مسلم عن عائشة وفاطمة رضى الله عنهما.

(٧) نفس المصدر السابق.

وأخبر ﷺ يوم بدر بمصارع صناديد قريش وأوقفهم على مصارعهم رجلا رجلا فلم يتعد واحد منهم ذلك الموضع(١)، والحديث مروى في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأخبر ﷺ: أنه ﷺ يقتل أبى بن خلف الجمحى فخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته فيه(٢).

وقد روى ذلك الإمام البيهقى في (دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة) من رواية سعيد بن المسيب وأيضا من رواية عروة بن الزبير رضي الله عنه مرسلا.

وأخبر ﷺ فاطمة ابنته: أنها أول أهله لحاقا به(٣) فكان كذلك(٤) وأخبر ﷺ نساءه بأن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت (زينب بنت جحش الأسدية) أطولهن يدا بالصدقة أولهن لحاقا به رضى الله عنها(٥،٦).

وغير ذلك من (أعلام نبوته) مما قد ذكر ودون في الكتب وفى الواحد منها كفاية غير أن الله تعالى لما جمع له بين أمرين: أحدهما: بعثه إلى الجن والإنس عامة. والآخر: ختمه النبوة به: ظاهر له من الحجج حتى إن شذت واحدة عن فريق بلغتهم أخرى وإن لم تنجح واحدة نجحت أخرى وإن درست على الأيام واحدة بقيت أخرى وفيه فى كل حال الحجة البالغة وله الحمد على نظره لخلقه ورحمته لهم كما يستحقه(٧).

فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله ﷺ ثم فى أقواله ثم في أفعاله ثم فى

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) الحديث متفق عليه على صحته بين البخارى ومسلم من رواية عائشة وفاطمة رضى الله عنهما.
(٤) ص ١٣٣٧ جـ٧ من الإحياء ط. الشعب.
(٥) نفس الموضع من نفس المصدر.
(٦) الحديث رواه الإمام مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها.
(٧) ص ٢٨ من المدخل إلى دلائل النبوة للإمام البيهقى ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

أخلاقه ثم في معجزاته ثم في استمرار شرعه إلى الآن ثم في انتشاره في أقطار العالم ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه ويتمارى بعد ذلك في صدقه. وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه في كل ما ورد وصدر[١] وعلى عادة (الإمام الغزالى) في إيراد أية شبهة ثم تعقيبه بالرد عليها: نراه يورد في إحيائه بعد سرد كثير من هذه المعجزات هذه القضية ويكر عليها بالرد فيقول: «ومن يستريب في انخراق العادة على يده ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواترا[٢] بل المتواتر هو القرآن فقط: كمن يستريب في شجاعة على رضي الله عنه وسخاوة حاتم الطائى، ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ولكن مجموع الوقائع يورث علما ضروريا[٣] على أن الإمام الغزالى في إحيائه: لا ينسى أن يؤكد ما يراه هو.. من أن أعظم أعلام نبوته ﷺ: وأكثرها دلالة على صدقه إنما تكمن: في مشاهدة حاله ﷺ وسماع أخباره وذلك في قوله: «إن من شاهد أحواله ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم، وتألفه أصناف الخلق وقوده إياهم إلى طاعته، مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طويل أعمارهم لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسبا بجبلة تقوم بها القوة البشرية بل لا يتصور ذلك إلا بالاستهداء من تأييد سماوى وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى إن العربى القح كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله فكيف من شاهد أخلاقه، ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده[٤].

(١) ص ١٣٣٩ جـ٧ ط. الشعب من كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى.
(٢) أى لم ينقلها جمع كثير عن جمع كثير مثلهم يحيل العقل تواطأهم على الكذب.
(٣) ص ١٣٣٨ جـ٧ من الإحياء ط. الشعب.
(٤) ص ٣٨٤ جـ٢ من إحياء علوم الدين ط. الحلبى سنة ١٩٣٩.

٣٤- ومن أعلام نبوته ﷺ ودلائلها المتظاهرة على صدقة:

ما أضافه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في رسالته والتى يجمل بنا أن نسوق شيئا منها ختاما لهذه النقطة من البحث.. وهو في تقديرنا: لا يخرج في جملته عن شيء مما سبق أن سيق من أعلام نبوته ودلائل رسالته ﷺ التى تظاهرت على صدقه في كل ما جاء به عن ربه يقول الأستاذ الإمام(١):

«في فقره وضعفه كان يقارع أعداءه بالحجة، ويناضلهم بالدليل، ويأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر، وينبههم للعبر، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة، كأنما هو ﷺ سلطان قاهر في حكمه، عادل في أمره ونهيه، أو أب حكيم في تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رؤوف بهم في شدته، رحيم في سلطته..

ما هذه القوة في ذلك الضعف؟ وما هذا السلطان في مظنة العجز؟ وما هذا العلم في تلك الأمية؟ وما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟

إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شيء الذى وسع كل شيء رحمة وعلما.

ذلك أمر الله الصادع: بقرع الآذان وبشق الحجب، ويمزق الغلف، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به، واختصه بذلك وهو أضعف قومه، ليقيم على هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة، بريئا من التهمة، لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أى برهان على النبوة أعظم من هذا؟

أمي: قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرأون...!

بعيد عن مدارس العلم: صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون..!

فى ناحية عن ينابيع العرفان: جاء يرشد العرفاء..!

---

(١) ص ١٤٢، ص ١٤٣ من رسالة التوحيد للأستاذ الإمام محمد عبده. الطبعة السابعة عشر للمنار ١٣٧٦هـ.

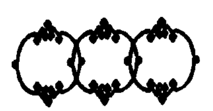
ناشىء بين الواهمين: هب لتقويم عوج الحكماء..!

غـريب في أقـرب الشعـوب إلى سـذاجـة الطبيـعـة، وأبعـدها عن فـهم نظام الخليقة والنظر إلى سننه البديعة أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها، ولن يخلص تاركها، ما هذا الخطاب المفحم؟ وما ذلك الدليل الملجم، أقول: ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم.. لا.. لا أقول ذلك، ولكن أقول: كما أمره الله:

أن يصف نفسه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(1) (الكهف:١٠٩).

نبى: صدق الأنبياء ولكن لم يأت في الاقتناع برسالته بما يلهى الأبصار، أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، وأخص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام، وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة، وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد(2) أقول:

وواضح وجلى: أن الأستاذ الإمام يعنى بكل ما تقدم ذكره: القرآن الكريم بكل ما حواه من علو العرفان وصحة البرهان.



(١) الأستاذ الإمام يشير بذلك إلى قوله تعالى ﴿قل إنما انا بشر مثلكم يوحى إلى﴾ من الآية ١٠٩ سورة الكهف.

(٢) ص ١٤٢ من رسالة التوحيد الطبعة السابعة عشرة للمنار. للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ١٣٧٦ هـ القاهرة.

القرآن ودلالته على صدق النبى ﷺ

ما قرره وأشار إليه بعض العلماء وهم بصدد الكشف عن بيان مصدر القرآن الكريم، وإثبات أنه من عند الله تعالى بلفظه ومعناه، والانتهاء من ذلك كله وعن طريق تقرير الواقع التاريخى، واستقراء أحداثه وتتبع جزيئاته وتأمل سيرة صاحب الرسالة ﷺ بإزاء القرآن الكريم نفسه وتتبع جزيئات سيرته في حياته العامة على وجه خاص - إلى إثبات هدفه وصحة دعواه: ومن هؤلاء: (أستاذنا المغفور له الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم) الذى أوقف جله ومعظم صحائفه للبحث ولتقرير هذا الموضوع الدقيق والخطير جميعا إذ يقول[1]:

«لقد علم الناس أجمعون علما لا يخالطه شك أنك هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربى أمى، ولد بمكة في القرن السادس الميلادى اسمه (محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب) صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض..

أما بعد: فمن أين جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟ أمن عند نفسه ومن وحى ضميره؟ أم من عند معلم؟ ومن هو ذلك المعلم؟

نقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه، وإنما هو (قول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين): ذلكم هو جبريل عليه السلام تلقاه من لدن حكيم عليم ثم نزله بلسان عربى مبين على قلب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصا من النصوص ولم يكن له فيه عمل بعد ذلك إلا:

١- الوعى والحفظ. ثم ٢- الحكاية والتبليغ، ثم ٣- البيان والتفسير، ثم ٤- التطبيق والتنفيذ. أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل وليس له من أمرهما شىء إن هو إلا وحى يوحى..

هكذا سماه القرآن حيث يقول: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا[2] قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ (الاعراف:٢٠٣).

(١) ص ١٣ وما بعدها من كتاب النبأ العظيم للشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز ط. ١٩٦٩.
(٢) اخترتها من عندك من معجم الألفاظ والأعلام القرآنية لمحمد إسماعيل جـ١ ص ١٠٢.

ويقول عز وجل: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (يونس،١٥) وأمثال هذه النصوص كثير في شأن إيحاء المعانى.

ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف،٢).

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ﴾ (الأعلى،٦).

﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة،١٦-١٩).

﴿اقْرَأْ﴾ (العلق،١)، ﴿وَاتْلُ﴾ (الكهف،٢٧)، ﴿وَرَتِّلِ﴾ (المزمل،٢٧)، فانظر كيف عبر بالقراءة والإقراء والتلاوة والترتيل وتحريك اللسان وكون الكلام عربيا، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعانى البحتة.

القرآن إذًا صريح في أنه «لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ولا لأحد من الخلق وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه»[1].

والعجيب أن يبقى بعض الناس فى حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة وهو أنه ليس من عند محمد..!

وفى الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيا يقضى بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التى جاءت بلسان صاحبها على نفسه ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل: ذلك أنها ليست من جنس الدعاوى فتحتاج إلى بينة وإنما هى من نوع الإقرار الذى يؤخذ به صاحبه ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، إذ أى مصلحة للعاقل الذى يدعى لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة.. نقول: أى مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره وينسلخ منها انسلاخا؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذى نعرفه ان كثيرا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها، أو يسرقون منها ما اخف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة أما ان أحدا ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد..

---

(١) ص ١٣، ص ١٤. من النبأ العظيم. بحث في بيان مصدر القرآن الكريم، للمرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز.

ولو أننا افترضناه افتراضا لما عرفنا له تعليلا معقولا ولا شبه معقول اللهم إلا شيئا واحدا قد يحيك في صدر الجاهل وهو أن يكون هذا الزعيم قدر أى أن في «نسبته القرآن إلى الوحى الإلهى» ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ونفاذ أمره فيهم لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه. وهذا قياس فاسد في ذاته فاسد في أساسه.

أما أنه فاسد في ذاته: فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه، والكلام المنسوب إلى الله تعالى فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئا، وما نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة فيها شيئا سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم؟

وأما فساد هذا القياس من أساسه: فلأنه مبنى على افتراض باطل: وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه وهذا أمر يأباه علينا الواقع التاريخى كل الإباء، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته وعباراته وإشاراته في رضاه وغضبه في خلوته وجلوته لا يشك في أنه ﷺ كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة وأن سره وعلانيته كانا سواء في دقة الصدق وصرامة الحق في جليل الشئون وحقيرها وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر حسناته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] (يونس،١٦).

ثم يشير (الأستاذ الدكتور دراز) إلى بعض نماذج من شهادة الأعداء له ﷺ بقوله: «اقرأ مثلا ما كتبه توماس كارليل الإنجليزى في كتاب الأبطال. وما كتبه الكونت هنرى دى كاسترى الفرنسى في خواطره وسوانحه عن الإسلام..

ثم اقرأ شهادة قريش التى سجلها أبو سفيان وهو في الجاهلية بين يدى هرقل عظيم الروم لما سألهم:

هرقل: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال:

قال: لا.

---

(١) «النبأ العظيم» البحث الثانى في بيان مصدر القرآن ص ١٦.

وسألهم: هل يغدر؟

قال: لا.

والحديث أخرجه الشيخان (البخاري ومسلم)(١).

ثم طفق صاحب «كتاب النبأ العظيم» يذكر من الشواهد الناطقة بصدقه ﷺ - بذكر طرف من سيرته ﷺ بإزاء القرآن فقال:

«وكأني بك ها هنا تحب أن أقدم لك من سيرته المطهرة مُثُلاً واضحة الدلالة على مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي الذي نحن بصدده وأنه لم يكن يأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه:

المثل الأول:

لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحديث لو كان الأمر إليه أوجد له مقالا ومجالا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها قرآنا يقرؤه على الناس. ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة -رضي الله عنها- وأبطأ الوحي وطال الأمر والناس يخوضون، حتى لغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول - بكل تحفظ واحتراس «إني لا أعلم عنها إلا خيرا» ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب ومضى شهر بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء. لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «يا عائشة: أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله».. هذا كلامه بوحي ضميره وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى تنزل صدر سورة النور معلنا براءتها ومصدرا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها» - الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما.

فماذا كان يمنعه لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي لتتقطع ألسنة المتخرصين؟

ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٢) * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٧).

---

(١) جـ١ ص١٦ من كتاب النبأ العظيم لأستاذنا المرحوم الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز.

(٢) الوتين: الشريان الرئيسي الذي يغذي جسم الإنسان بالدم النقي الخارج من القلب: جـ٢ ص٢٦٥ من معجم الألفاظ والأعلام القرآنية للأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم.

ومثل آخر: (يذكر الأستاذ الدكتور) فيقول: وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه فيخطئه في الرأى يراه، ويأذن له في الشيء ولا يميل إليه، فإذا تلبث فيه يسيرا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد، والعتاب القاسي والنقد المر حتى في أقل الأشياء خطرا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ (التحريم،١).

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب،٣٧)

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة،٤٣)

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة،١١٣).

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال،٦٧).

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ (عبس،٥).

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رايه أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه؟ بل أن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئا من ذلك الوجدان ولو كان كاتما شيئا لكتم أمثال هذه الآيات ولكنه الوحى لا يستطيع كتمانه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾(١) (التكوير،٢٤).

وتأمل (آية الأنفال) المذكورة تجد فيها ظاهرة عجيبة: فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم وقد بدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطييب النفوس بها بل صارت هذه السابقة التى وقع التأنيب عليها هى القاعدة لما جاء بعدها.. فهل الحالة النفسية التى يصدر عنها أول هذا الكلام لو كان عن النفس مصدره - يمكن أن يصدر عنه آخره ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضى والاستحسان؟ كلا، وإن هذين الخاطرين لو فرض - صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثانى منهما إضرابا عن الأول ما حياله، ولرجع آخر الفكر وفقا لما جرى به العمل.

---

(١) الضنين: البخيل المقصر في تبليغ رسالته ص ٢٧ جـ٢ من المعجم المفهرس.

فأى داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله على ما فيه من تقريع علنى بغير حق وتنغيص لهذه الطعمة التى يراد جعلها حلالا طيبا؟

إن الذى يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ها هنا ألبته شخصيتين منفصلتين وأن هذا: صوت سيد يقول لعبده: لقد أسأت ولكنى عفوت عنك وأذنت لك وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التى وقع العتاب عليها لوجدتها تنحصر في شيء واحد: وهو أنه ﷺ - كان إذا ترجح بين أمرين ولم يجد فيهما إثما: اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه وأبعدهما عن الغلظة والجفاء وعن إثارة الشبه في دين الله: لم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحا أو جاوزه خطأ ونسيانا، بل كل ذنبه أنه مجتهد: بذل وسعه في النظر.. ورأى نفسه مخيرا فتخير..

هبة مجتهدا أخطأ باختيار خلاف الأفضل، أليس معذورا ومأجورا؟ على أن الذى اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية.. وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية..

هل ترى في ذلك ذنبًا يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية وسنة العروج في معارج التعليم والتأديب؟

توفى «عبد الله بن أبى» كبير المنافقين فكفنه النبى في ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلى عليه.. فقال عمر أتصلى عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: إنما خيرنى ربى فقال ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ (التوبة:٨٠). وسأزيد على السبعين وصلى عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ (التوبة:٨٤). فترك الصلاة عليهم.

اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين.. وانظر ماذا ترى؟

إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع وقد اتخذ من القرآن دستورا يستملى أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آنس من ظاهر النص الأول تخييرا له بين طريقين فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكريم والرحمة ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة وتجلى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن معنى القوة التى لا تتحكم فيها البواعث والأغراض بل تصدع بالبيان فرقانا بين الحق والباطل وميزانا للخبيث والطيب أحب الناس أم كرهوا

رضوا أم سخطوا آمنوا أم كفروا، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين فترى بين المقامين ما بينهما وشتان ما بين سيد ومسود وعابد ومعبود[١].

ولقد استمر الأستاذ الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز[٢] يستعرض مع القارئ صورا مختلفة من القرآن الكريم تكشف عن سيرته ﷺ بإزائه وهي مواقف تثبت في الوقت نفسه صدقه ﷺ وصحة دعواه فيما يتعلق بالنبوة صدقا لا يعتريه شك ولا يرد عليه ريب فيقول:

«ولقد كان يجيئه الأمر أحيانا بالقول المجمل أو الأمر المشكل الذى لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد».

قل بربك: أى عاقل توحى إليه نفسه كلاما لا يفهم هو معناه وتأمره أمرا لا يعقل هو حكمته؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل وأنه مأمور لا آمر؟

نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٤) فأزعجت الصحابة إزعاجا شديدا وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها فقالوا: يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها فقال لهم النبى ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.. الآيات.. فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها فيقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة المذكورة.

وهنالك علموا أنهم يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة لا من الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار - والحديث في مسلم وغيره، وأشار إليه البخارى في التفسير مختصرا.

وموضع الشاهد منه أن النبى ﷺ لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم ولأزال عنهم استياءهم من فورهم ولكنه كان مثلهم: ينتظر تأويلها.. نعلم من ذلك أنه ﷺ ناقل لا قائل.. وبذلك ثبت صدقه وتأكدت دعواه[٣].

واقرأ في صحيح البخارى وسنن أبى داود وغيرهما قضية الحديبية ففيها آية بينة:

---

(١) ص١٩، ص ٢٠ من النبأ العظيم الدكتور دراز.

(٢) في كتابه الرائع: النبأ العظيم - ط. القاهرة سنة ١٩٦٩ مطبعة السعادة.

(٣) النبأ العظيم مع تصرف واختصار ص ٢.

اذن الله تعالى للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدى عليهم أينما وجدوه غير الا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة:١٩٠). فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذرا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع - فلما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشا جمعت جموعها على مقربة منهم فلم يثنى ذلك من عزمهم لأنهم كانوا على تمام الأهبة بل زادهم ذلك استبسالا وصمموا على المضى إلى البيت فمن صدهم عنه قاتلوه وكانت قريش قد نهكتها الحروب فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه..

وأنهم لسائرون عند الحديبية إذ بركت راحلة النبى ﷺ وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور فقالوا: خلأت القصواء.. أى (حرنت الناقة) فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل».. يعنى أن الله تعالى الذى اعتقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين هو الذى اعتقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة.. وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين لا بادئين بالقتال ولا مكافئين وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية وعدل بهم عن متابعة السير امتثالا لهذه الإشارة الإلهية التى لا يعلم حكمتها وأخذ يسعى لدخول مكة عن طريق الصلح من قريش قائلا: والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ولكن قريشا أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربا ولا مسالما وأملت عليه شروطا قاسية. بأن يرجع من عامه وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسلما وأن لا ترد هى أحدا يجيئها من المدينة تاركا لدينه فقبل تلك الشروط التى لم تكن لتمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم والعودة من حيث جاءوا فلا تسأل عما كان لهذا الصلح من الوقع السيئ في نفوس المسلمين حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضا ذهولا وغما، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة وأخذوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعونه هو نفسه قائلين: لم نعطى الدنية في ديننا وهكذا كاد الجيش يتمرد على أمر قائده ويفلت حبله من يده فلم يكن من الطبيعى إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذى وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار الصحابة حكمة هذه التصرفات التى فوق العقول حتى يطفئ نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها؟

ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر «إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى» أقول لقد اشتمل هذا الجواب على أعظم دلائل صدقه ﷺ وكمال عبوديته لربه يقول: إنما أنا عبد مأمور ليس لى من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاى واثقا بنصره قريبا أو بعيدا.

وهكذا ساروا راجعين وهم لا يدرون تأويل هذا الأشكال حتى نزلت سورة الفتح فبينت لهم الحكم الباهرة والبشارات الصادقة: فإذا الذى ظنوه ضيما وإجحافا في بادئ الرأى كان هو النصر المبين والفتح الأكبر وأين تدبير البشر من تدبير القدر؟

يقول ابن إسحاق عن الزهرى: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من هذا الفتح (يعنى: فتح الحديبية) ويشرح الأمر فيقول: إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا التقوا وتفاوضوا فى الحديث فلم يكلم أحد بالإسلام يفعل شيئا في تلك المدة إلا دخل فيه».

وللمقارنة بين تدبير البشر وتدبير القدر وتأكيد البعد فيما بينهما والعجز عن إدراك الحكمة يذكر ربنا قصة هذا الفتح في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:٢٤-٢٧).

ومن هذه المواقف الدالة على صدقه فى دعوى النبوة بإزاء القرآن الكريم هذا الموقف الذى أشار إليه صاحب كتاب (النبأ العظيم)[١].

«لقد كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحى يتلقفه متعجلا فيحرك به لسانه وشفتيه طلبا لحفظه وخشية ضياعه من صدره ولم يكن ذلك معروفا من عادته في تحضير كلامه لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها ولا كان ذلك من عادة العرب إنما كانوا يزورون[٢] كلامهم في أنفسهم فلو كان القرآن

(١) ص ٢٤ و٢٥ من النبأ العظيم للدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز.

(٢) التزوير: تزيين الكذب يقال زور الشيء تزويرا حسنه وقومه. مختار الصحاح للرازى ص٢٧٨ ط١٩٥٤.

منبجسا[١] من معين نفسه لجرى على سنة كلامه[٢] وكلامهم ولكان له من الروية والأناة[٣] الصامتة ما يكفل له حاجته من إنضاج الرأى وتمحيص الفكرة ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وفتيا ويلم[٤] به سريعا بحيث لا تجدى الروية شيئا في اجتهاده لو طلب ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شيء.

وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى إليه حرفيا فكان لا بد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التى لم يألفها من نفسه أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية حتى ضمن الله له حفظه وبيانه بقول: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة:١٦-١٩).

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤).

هذا طرف من سيرته ﷺ بآزاء القرآن الكريم وكلها شواهد ناطقة بصدقه في إن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه وأنه لم يفض عن قلبه بل أفيض عليه[٥].

سيرته العامة من أعظم أعلام نبوته ﷺ:

١- وإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة وحسبك الآن منها أمثلة يسيرة إذا ما تأملتها صورت لك إنسانا: الطهر ملء ثيابه والجد حشو إهابه يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه وتأبى أن تحفيا خلاف ما يعلنه ويأبى سمعه أن يصغى إلى غلو المادحين، له تواضع هو حلية العظماء وصراحة نادرة في الزعماء وتثبت قلما تجده عند العلماء فأنى من مثله الختل[٦] أو التزوير أو الغرور أو التغرير.. حاشى لله.. في بعض الأيام جلست جويريات[٧] يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارية وجعلن يذكرن آبائهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبى يعلم ما في غد.. فقال ﷺ لا تقولى هكذا وقولى ما كنت تقولين» رواه البخارى.. ومصداقه في كتاب الله: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ (الأنعام:٥٠) وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ (الأعراف:١٨٨).

---

(١) ص ٤١ من المصدر السابق. (٢) السنة: الطريقة ينظر المادة ٢١٧ المصدر نفسه.

(٣) الروية التفكر في الأمر - والأناة الحلم. ينظر ص ٢٦٥ و٣١ من المصدر نفسه.

(٤) يلم: يحيط ويتعرف.

(٥) النبأ العظيم للمرحوم الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٤ وما بعدها.

(٦) ختله وخاتله: خدعه ص ١٦٩ من مختار الصحاح. (٧) جمع جارية.

٢- وكان عبد الله بن السرح أحد النفر الذين استثناهم النبى ﷺ من الأمان يوم فتح مكة لفرط إيذائهم للمسلمين وصدهم عن الإسلام، فلما جاء إلى النبى ﷺ لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان رضي الله عنه «ثلاثا» ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدى عن بيعته فيقتله.

فقالوا: ما ندرى ما في نفسك. إلا أومأته لنا بعينك: فقال ﷺ هذه الكلمة التى يجدر أن يقف عندها كل عاقل طويلا متأملا ومتدبرا، ثم ينتهى من تأمله وتدبره إلى أن يمضى في طريقه مؤمنا بصدق نبيه ومؤمنا بصحة نبوته ورسالته..

لقد قال: «إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين»[1].

يالله.. أما أعظم ما منحت نبيك من خلق عظيم هو أثر لعظمتك، ونفحة من خزائن رحمتك.

٣- ولما توفى عثمان بن مظعون رضي الله عنه: قالت أم العلاء (امرأة من الأنصار) رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله.. فقال ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه، فقالت بأبى أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله، قال: أما هو فقد جاءه اليقين، والله إنى لأرجو له الخير. والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى، قالت: فوالله لا أزكى أحدا بعده ابدا[2] ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾[3] (الأحقاف٩) وقد ناقش (المغفور له الشيخ الدكتور دراز) هذه النماذج والأمثلة وعلق عليها فقال بأسلوبه العذب والجزل، وبعباراته الرشيقة الدقيقة:

«أتراه حين يتحامى الكذب يتحاماه دهاء وسياسة، خشية أن يكشف المغيب قريبا أو بعيدا عن خلاف ما يقول؟: ما الذى كان يمنعه أن يتقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت وهو لا يخشى من يراجعه فيه؟ ولا يهاب حكم التاريخ عليه؟ بل منعه الخلق العظيم وتقديرا لمسئوليته الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (الأعراف٦،٧).

«واعلم أنك مهما أزحت عن نفسك راحة اليقين وأرخيت لها عنان الشك وتركتها تفترض أسوأ الفروض في الواقعة الواحدة والحادثة الفذة من هذه السيرة المكرمة فإنك متى وقفت منها على مجموعة صالحة لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك إلا بعد أن تتهم وجدانك، وتشك في سلامة عقلك فنحن قد نرى الناس يدرسون حياة الشعراء في أشعارهم فيأخذون عن الشاعر من كلامه صورة كاملة تتمثل فيها عقائده وعوائده وأخلاقه ومجرى

---

(١) رواه أبو داود والنسائى. (٢) رواه البخارى والنسائى.

(٣) وقد قال العلماء: إن ذلك إنما كان قبل أن يوحى إليه صدور سورة الفتح وفيها ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾.

نظيره وأسلوب معيشته ولا يمنعهم زخرف الشعر وطلاؤه عن استنباط دخيلته وكشف رغوته عن صريحه وذلك أن للحقيقة قوة غلابة تنفذ من حجب الكتمان فتقرأ بين السطور وتعرف في لحن القول، والإنسان مهما أمعن في تصفعه ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله تنم على طبعه إذا احفظ أو أخرج أو احتاج أو ظفر أو هلا بمن يطمئن إليه:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وأظنك بهذه الحياة النبوية التى تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لغنى صاحبها فتريك باطنه من ظاهره وتريك الصدق والإخلاص ماثلا في كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله. بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته وحسنت فراسته يرى أخلاقه العالمية تلوح في محياه ولو لم يتكلم أو يعمل. ومن هنا كان كثير ممن شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله ﷺ على ما قال برهانا فمنهم العشير الذى عرفه بعظمة سيرته ومنهم الغريب الذى عرفه بسيماه في وجهه.

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل[1] الناس إليه. وقيل: قدم رسول الله ﷺ فجئت فى الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب..!

القرآن الكريم ودلالته على صدق النبي:

ثم يقول صاحب (النبأ العظيم): إن صاحب ذلك الخلق العظيم، وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن ما كان ينبغى لأحد أن يمترى في صدقه حين أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب وأن منزلته عنه منزلة المتعلم المستفيد، بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البرىء دليلا آخر على صراحته وتواضعه.

على أن الأمر أمامنا أوضح من أن يحتاج إلى سماع هذا الاعتراف القولى منه أو يتوقف على دراسة تلك الناحية الخلقية من تاريخه.

أليس يكفى للحكم ببراءة إنسان من عمل من الأعمال: أن يقوم من طبيعته شاهد بعجزه المادى عن إنتاج ذلك العمل.

فلينظر العاقل: هل كان هذا النبى الأمى - صلوات الله عليه - أهلا بمقتضى وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعانى القرآنية.

سيقول الجهلاء من الملحدين نعم: فقد كان له من ذكائه الفطرى وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء. والحسن والقبيح من الأخلاق والخير والشر من الأفعال.

(١) انجفل الناس إليه: أى أقبلوا عليه مسرعين: لاستقباله وإعلان السرور بذلك.

حتى لو أن شيئا في السماء تناله الفراسة أو تلهمه الفطرة أو توحى به الفكرة لتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل، وتأملاته الصادقة.

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوه من شمائله. ولكننا نسأل: هل كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور: اللهم كلا.. ففى القرآن جانب كبير من المعانى النقلية البحتة، التى لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقى والتعلم.

وما أصدق قول القائل:

كفاك بالعلم في الأمى معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليتم

ثم يقول الدكتور في موضع آخر: موضحا ومفصلا دلالة القرآن الكريم على صدق محمد ﷺ رجل أمى بين أظهر قوم أميين.. يحضر مشاهدهم في غير الباطل والفجور ويعيش معيشتهم مشغولا برزق نفسه وزوجه وأولاده.. راعيا بالأجر، وتاجرا بالأجر لا صلة له بالعلم والعلماء ويقضى في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك. ويبدى لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم أفى مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره. أى منطلق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمى نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية:

إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفرى سر آخر يلتمس خارجا عن حدود النفس. إن ملاحدة الجاهلية كانوا أصدق تعليلا لهذه الظاهرة وأقرب فهما لهذا السر من ملاحدة هذا العصر. إذ لم يقولوا إنه ﷺ قد استقى ما فى القرآن من أخبار من عند نفسه ومن وحيها بل قالوا: إنه لا بد أن تكون قد أمليت عليه يومئذ علوم جديدة فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ (الأنعام:١٠٥).

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان:٥).

ولقد صدقوا: فإنه درسها. ولكن على أستاذه الروح الأمين.

واكتتبها: ولكن من صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة - كرام بررة.

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:١٦).

إعجاز القرآن الكريم

ووجه كون المعجزة الكبرى بيانية:

يجدر أولا أن نوضح: وجه كون المعجزة الكبرى لسيدنا محمد ﷺ بيانية متمثلة في القرآن الكريم:

يقول القاضى عياض في كتابه الشفاء عن العرب الذين نزل القرآن بساحتهم يصف بيانهم: «خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب. وجعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون إلى كل سبب، فيخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال. منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهرى، والمنزع القوى، ومنهم الحضرى: ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف في القول.. القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية».. إلى آخر ما ذكره القاضى عياض في بيان بلاغة العرب. لذلك فقد كان من المناسب لمثل هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد رسول الله ﷺ وخاطبهم القرآن ابتداء أن تكون المعجزة من النوع الذى يحسنونه ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة البشرية التي كانت لهم[1]..

والحق.. أنه قد التقى في المعجزة الكبرى للنبى ﷺ وهى القرآن المبين معنيان أصيب بهما هدفان: أولهما: أنه المناسب الذى يعرف به العرب معنى الشىء الخارق لما عرف، الخارج عن طاقتهم فإنه لا يدرك أثر ذلك إلا - هم، ولا يعرف مقامه إلا - من على شاكلتهم من معرفة مقام القول ومنزلة البيان.

وثانيهما: أن كونه من نوع الكلام الموحى به الباقى الخالد الذى حفظه الله تعالى ووعد بحفظه إلى يوم القيامة في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، أمر يناسب رسالته التى هى خاتم الرسائل الإلهية التى جاء بها محمد رسول الله تعالى خاتم النبيين، فكان المناسب أن تكون المعجزة من نوع الكلام الخالد الباقى، وذلك ما يرجى أن يحقق أهدافه من وفرة الاتباع وكثرتهم

---

(١) المعجزة الكبرى: للعلامة الشيخ محمد أبو زهرة مع اختصار وتصرف. ص٥٢ وما بعدها مطبعة وهدان سنة ١٩٧٠.

على مر الأيام وتوالى الأزمان.. وهو ما أشار إليه النبى ﷺ فيما أخرجه عنه البخارى وغيره من قوله: «ما من نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر، وكان الذى أوتيته وحيا أوحى به إلى، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا إلى يوم القيامة».

لقد تحدى القرآن الكريم بإعجازه العرب إلى نهاية الشوط.

وتحدى النبى ﷺ -بتوجيه من ربه- العرب في عنف[1] متدرجا بهم من أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وإلى أن يأتوا بعشر سور مثله ثم انتهى بهم أخيرا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا، وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم في محكم آياته: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء٨٨).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود١٣).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة٢٣، ٢٤).

على أن المتأمل لهذه الآيات يلاحظ أن لفظ (مثل) قد جاء مكررا فيها والمثلية لا تختص بجانب دون جانب، وإنما تعم جميع المناحى.

والواقع أن النقاش في أن القرآن معجز بأسلوبه، أو بمعانيه، أو بقصصه أو بأخباره عن المغيبات، أو بغير ذلك من وجوه: إنما هو: نقاش لا يتمشى مع الفكرة القرآنية التى هى فى التماثل من جميع النواحى..

قال صاحب البحر المحيط: والمثلية في حسن النظم وبديع الوصف وغرابة الأسلوب، والإخبار بالغيب ما كان وما يكون، وما احتوى عليه من الأمر والنهى، والوعد والوعيد، والقصص والحكم والمواعظ والأمثال، والصدق، والأمن من التحريف والتبديل[2].

ومنشأ الخلاف في تحديد وجوه الإعجاز في القرآن هو كما أشار إليه الدكتور عبد الحليم محمود.. إنما يرجع إلى اختلاف الاستعدادات الفطرية والاتجاهات الفكرية لإدراكها ومعرفتها..

---

(١) ص٧٧: القرآن والنبى لأستاذنا الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ط. الأولى - دار النصر بالقاهرة.
(٢) البحر المحيط: جـ١ ص ١٠٤، ١٠٥.

فمثلا من وجد القرآن مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل وأخبار السابقين والغيبيات التى لا تحيط بها البشرية علما حصر وجوه الإعجاز فيما أدرك.

ومن نظر إلى القرآن من ناحية اللفظ، وحسن السبك وجزالة الأسلوب وما له من روعة تملك على السامع شعوره ووجدانه، حصر الإعجاز في ذلك.

ومن أجال فكره فيما حواه القرآن من الأسرار الكونية التي تكشف عنها العلوم والبحوث أيا كانت فهو مصدق لما في الطبيعة والفطر ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾، اتجه هذا الاتجاه.. إلخ[1].

وبعد:

فهناك حقيقتين لا بد أن نشير إليهما..

الحقيقة الأولى: أن قريشا مع شدة ملاحاتها للنبى ﷺ، ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون، وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون: لم يتحركوا لأن يقولوا مثله، بل أذعنوا لبلاغته وقوته، وأن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله فما فعلوا، بل ما تحرك العقلاء منهم لأن يفعلوا حتى لا يسفوا فى تفكيرهم وهم أمام رجل كبير في قومه وعقله، ومعه آيات الله تعالى البينات، فدل هذا على عجز مطلق..

الحقيقة الثانية: أن القرآن جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة وقوة بيان، وإيجاز معجز وأقوال محكمة، وقصص تطول وتقصر وهى مملوءة بالعبر في طولها وقصرها وإطنابها وإيجازها، وإنما كان الإيمان ثابتا بالقرآن جاذبا إلى ما فيه لأنهم أدركوا أنه فوق طاقة البشر..

والثابت أن أحدا من أهل البيان لم يحاول أن يأتى بمثله ولم يعرف ذلك، وإذا كان التاريخ قد ذكر شيئا من هذه المحاولة فقد كان ذلك في أيام الردة من (مسيلمة الكذاب) وأشباهه، فقد حاول أن يجارى ببضع كلمات آي القرآن فكان ما جاء به أضحوكة وسخافة من السخافات يقول الباقلانى[2]: «لقد كان على سخافته قد أضل وعلى ركاكته قد أزل، لأن الزلل سابق على سماعه، والكفر سابق على ابتداعه، وميدان الجهل واسع، والحماقة لها أهل، وميدانها عندهم، ونحن إذا قلنا إن المشركين ضلوا فهم في عقولهم كانوا أوسع إدراكا.. وإن جحدوا..

انظر ما قال المجهول يحاكى القرآن الكريم: «والليل الأطقم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من أحرم».

---

(١) ص ٧٨ من القرآن والنبى لأستاذنا الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر.

(٢) إعجاز القرآن للإمام الباقلانى ص ٢٤٠ القاهرة - دار المعارف - تحقيق السيد أحمد صقر وينظر كذلك المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ٥٩.

ويقول: «والليل الداس، والذئب الهامس.. ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس»..

واجتمعت (سجاح بنت الحارث) وكانت تتنبأ أى (تدعى النبوة) مع (مسيلمة) فقالت له: ما أوحى إليك؟ قال: أوحى إلى «أن الله خلق النساء أفواجا، وجعل الرجال لهن أزواجا فنولج فيهن فقسا إيلاجا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجا فينتجن سخا لانتاجا» فقالت أشهد أنك نبى(١).

هذه هى تفاهات القول التى نقلت عن الذين حاولوا معارضة القرآن ونلاحظ أنهم قد أسفوا فى القول وهبطوا في التفكير مما لم يرد أن ينحدر إليه أرباب البيان من قريش لأنهم يعرفون مقام ما يسمعون من كلام رب العالمين.. استطاعوا أن يجحدوا الحق وقد عرفوه، ولم يستطيعوا، بل لم يرتضوا لأنفسهم أن يتنزلوا بمقامهم من الإدراك البيانى فيفندوا بأنفسهم بيانهم وذوقهم الكلامى، وأن ارتضوا في الوقت نفسه أن يفسدوا عقائدهم. ويكابروا في دينهم ويكذبوا رسالة ربهم.

- إن عجز العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن أمر ثابت ثبوتا لا مجال للريب فيه، لا يمارى فيه إلا من يهمل عقله لا سيما بعد إذا تواترت الأخبار أن عجزهم هذا: قد اقترن بثلاثة أمور:

أولها: إعجابهم بعلوه عن أن يصل إليه أحد من البشر، وقد قالوا في ذلك بأنه يعلو ولا يعلى عليه وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه مثمر وأسفله مغدق وقد قال ذلك المغيرة فى جمعهم فما أنكروا عليه حكمه على القرآن الذى سمعه، ولكن أنكروا عليه أنه تحت تأثير هذا ترك جماعتهم.. وكأنهم أقروه على وصفه القرآن بما وصفه به ولكنهم أنكروا عليه الإيمان ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل،١٤).

ثانيها: أنهم كانوا مع شركهم واستكراه نفوسهم لعدم الإقرار به ينجذبون إليه ويريدون أن يسمعوه، استطابة لما فيه من لفظ ذى نغم يجذب، وعبارات مشوقة ونظم منفرد أجمل من سطع اللآلئ، ولأنهم عرفوا من أنفسهم هذا الميل إلى استماعه وأثره في نفوسهم تواصوا ألا يسمعوه ولكن الذين تواصوا بذلك ذهبوا إلى سماعه منفردين ومستخفين حتى رأوا أنفسهم مجتمعين فكان الرأى المجدى عندهم التواصى على الجحود.

ثالثها: أن أشدهم عنادا كان أقربهم إيمانا إذا قرأ القرآن هفا قلبه إلى الإيمان وإلى الاستجابة إلى داعيه، لقد سمعه أبو ذر فآمن، وسمعه أخوه أنيس فأذعن، وسمعه عمر فانخلع قلبه من الشرك والطغيان إلى الأمن والإيمان.

وتأكيدا وتدعيما لكل ما سبق لنا أن سقناه من مظانه ومصادره عن قضية الإعجاز

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤٠ ط. دار المعارف بمصر.

في القرآن.. فإن خير ما نختم به هذا الجزء من البحث هو بما نقله الإمام المفسر القرطبى عن (ابن عطية) حيث قال[1] وجه التحدى في القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه.. ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله علما فعلم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول: ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة..

وبهذا النظر يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها أن تأتى بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة فلما جاء محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه.. والصحيح: أن الاتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين.. ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل..

وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد.. ويعلق الإمام القرطبى فى تفسيره[2] على هذا الكلام فيقول: «إن بلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان وأرفع درجات الإيجاز والبيان.. بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة إلى حيز الإباء والزيادة..» هذا رسول الله مع ما أوتى من جوامع الكلم واختص به من غرائب الحكم، إذا تأملت قوله ﷺ في صفة الجنان[3] وإن كان في نهاية الإحسان وجدته منحطا عن رتبة القرآن وذلك في قوله ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» أين ذلك من قوله عز وجل: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ وقوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾، هذا أعدل وزنا وأحسن تركيبا وأعذب لفظا وأقل حروفا..

على أنه لا يعتبر الإعجاز والتحدى إلا فى مقدار سورة أو أطول آية لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف وضاق المقال على القاصر المتكلف، وبهذا قامت الحجة على العرب إذا كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة كما قامت الحجة في معجزة عيسى ﷺ على الأطباء ومعجزة موسى ﷺ على السحرة.. فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبى الذى أراد إظهاره..

(١) ص ٧٦ من الجزء الأول من كتاب الجامع لأحكام القرآن ط. ثالثة عن طبعة دار الكتب المصرية (مصورة) نشر دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٧.

(٢) ص ٧٧ من نفس المصدر السابق. (٣) جمع جنة.

القرآن صوت الله في الأرض

أخرج البخارى في صحيحه عن النبى ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىَّ، فأرجو أنى أكثرهم تابعا يوم القيامة»..

هذا الحديث يعين جوانب هذا البحث فهو يقول: إن أهم وسائلنا لمعرفة النبى هو: الكتاب الذى جاء به مدعيا أنه من عند الله. والقرآن هو: رسالة الرسول بين ظهرانينا كما أنه يبرهن على صدقه فما الخصائص التى تبرهن على أن القرآن من عند الله؟ إن هذه الخصائص متعددة الجوانب، كثيرة الشعب، نستطيع أن نلخصها في الفصول التالية:

أولا: إعجاز القرآن:

فأول خاصة يتنبه إليها الباحث في العلوم القرآنية: هى ذلك التحدى الصريح الذى وجهه القرآن إلى الناس كافة منذ أربعة عشر قرنا، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة القرآن، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر أن يرد التحدى إلى الآن. لقد أعلن القرآن بصوت عال لا إبهام فيه ولا غموض هذا التحدى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:٢٣).

إنه أغرب تحد في التاريخ، وأكثره آثارة للدهشة، فلم يجرؤ أحد من الكتاب في التاريخ الإنسانى وهو بكامل وعيه وعقله أن يقدم تحديا مماثلا، فإن مؤلفا، لا يمكن أن يضع كتابا يستحيل على الآخرين أن يكتبوا مثله، أو خيرا منه.. فمن الممكن إصدار مثيل من أى عمل إنسانى في أى مجال.. ولكن حين يدعى أن هناك كلاما ليس في إمكان البشر الإتيان بمثله، ثم تخفق البشرية على مدى التاريخ في مواجهة هذا التحدى حينئذ يثبت تلقائيا أنه كلام غير إنسانى، وأنها كلمات صدرت من صميم المنبع الإلهى وكل ما يخرج من المنبع الإلهى لا يمكن مواجهة تحدياته.

ولقد سجلت بعض صحائف التاريخ محاولات جاهد فيها أصحابها من أجل المواجهة لهذا التحدى المعجز للقرآن الكريم أخفق أصحابها فيها إخفاقا ذريعا.. ومن هؤلاء مسيلمه بن حبيب الكذاب، وطليحه بن خويلد الأسدى، والنضر بن الحارث، وأبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى، وأبو الطيب المتنبى، وأبو العلاء المعرى صاحب كتاب «الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات»[(١)]، وهكذا لا يزال تحدى القرآن الكريم قائما ومستمرا على مر القرون والأجيال، وهى خاصة عظيمة ورائعة في صالح القرآن تثبت دون مرية: أنه كلام من هو فوق الطبيعة، وأى إنسان يتمتع بكفاءة التفكير والإيمان في حقيقة الأمر يكفيه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب. ومما لا شك فيه أن العرب: وهم الذين لم يعرف لهم مثيل في التاريخ في البلاغة والبيان، حتى أطلقوا على غيرهم اسم (العجم) لشدة اعتزازهم ببيانهم - قد اضطروا أن يركعوا أمام القرآن معترفين بعجزهم عن الإتيان بمثله، فلزمتهم بذلك الحجة..

ومما جاء في ذلك ما ذكره صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما من خبر (ضماء) لما استمع إلى النبى ﷺ. فقال معلقا: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن ناعوس البحر: أى قعره الأقصى وهناك عدد لا يحصى من اعترافات أرباب الشعر والبلاغة في شأن القرآن الكريم سطرت في صفحات التاريخ القديم والحديث تؤكد هذا الإعجاز الأبدى للقرآن الكريم.

ومما يؤكد أن القرآن الكريم هو صوت الله ويبرهن على أنه من عنده سبحانه نبوآته الصادقة:

الجانب الثانى من عظمة القرآن التى تبرهن على أنه من عند الله وعلى صدق من جاء به يتجلى في تنبوآته المختلفة التى ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة.

يقول الأستاذ (وحيد الدين خان) فيما يتعلق بهذا الوجه المعجز المبرهن على

---

(١) ينظر ص ١٠٨ - ص ١١١ من الإسلام يتحدى للأستاذ وحيد الدين خان.

صدق القرآن وصدق من جاء به ﷺ: إن عددا كبيرا من أذكياء الناس ومن العباقرة قد جرؤوا على أن يتنبأوا عن أنفسهم أو عن غيرهم، ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه التنبؤات مطلقا، بل جاء يكذبها بكل قسوة، ولقد تحفز الفرص المواتية، والأحوال المساعدة، والكفاءات العالية، وكثرة الأعوان والأنصار والنجاح الخارق فى البداية الكثيرين وهم يرون أنهم يسيرون تجاه نتائج مرضية - أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين، ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوى، ويكذبها دائما.. والزمن نفسه: هو الذى أثبت صحة ما جاء فى القرآن من التنبؤات في حين أنها جميعا جاءت في أحوال غير مواتية، إن هذه النبوءات وقد وقعت فعلا على ما يحدثنا التاريخ - تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها وما دمنا ندرسها في ضوء علومنا المادية، فلن نستطيع إدراك حقائقها إلا أن ننسبها إلى مصدر غير بشرى.

لقد كان (نابليون بونابرت) من أعظم قواد الجيوش في عصره وقد دلت فتوحاته الأولى: على أنه سوف يكون ندا لقيصر، والإسكندر المقدونى، وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه إلى رأس (نابليون) فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر وازداد هذا الشعور لديه حتى إنه ترك مستشاريه وادعى أنه لم يكتب في قدره غير الغلبة الكاملة على من في الأرض. ولكننا جميعا نعرف النهاية التى كتبت له في لوح القدر وهى نهاية تناقض تماما مع ما كان يتنبأ به لنفسه.

لقد سار نابليون مع جحفله العظيم ليقضى على أعدائه وهم في الطريق، ولم تمض غير ستة أيام حتى لحقت به وبجيشه شر هزيمة ولما أيقن من مصيره المحتوم فر هاربا من القيادة الفرنسية متوجها إلى أمريكا ولم يكد يصل إلى الشاطئ، حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه، وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية وانتهى به القدر: إلى أن أرسل إلى جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطى هى جزيرة (سانت هيلينا) ولقى حتفه بعد سنوات من البؤس والشقاء والوحدة.

وكذلك كان مصير (هتلر) الذى تنبأ لنفسه بهذه النبوءة فى خطابه

الشهير[1] فقال: «إننى سائر في طريقى، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لى» ولكن العالم بأجمعه يعرف اليوم مصير (هتلر) الذى كتب في قدره الهزيمة والانتحار.

وسط هذا الزحام من التنبؤات.. لا تجد غير (القرآن) الذى تحققت نبوءاته حرفا حرفا وهذا الواقع يكفى في ذاته لإثبات أن هذا الكلام صادر من عقل وراء الطبيعة يمسك بزمام الأحوال والحوادث وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل إلى الأبد[2].

وسوف نورد هنا خبرين من التنبؤات الكثيرة التى أدلى بها رسول الإسلام وتحققت بكاملها والشهادتان اللتان سنذكرهما، تتعلق إحداهما بغلبة الإسلام نفسه.

على حين تتعلق الثانية بغلبة الروم مرة أخرى.

أما غلبة الإسلام نفسه كنبوءة أكدها القرآن وتحققت فقد عرضها الأستاذ (وحيد الدين خان) بقلمه فقال: عندما بدأ النبى ﷺ دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده، وكان على النبى مواجهة ثلاث جبهات في وقت واحد.

أولها: القبائل المشركة بعد أن أصبحوا أعداء حياته.

وثانيها: الرأسمالية اليهودية.

وثالثها: أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم من داخل معاقلهم وكان الرسول ﷺ يجاهد في سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات قوة المشركين والرأسمالية اليهودية - والطابور الخامس، وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغى وقفات رائعة لا مثيل لها ولم يسانده في مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار وجماعة أسلمت من العبيد، ومما لا شك فيه أنه قد أنضم إليه بعض كبار قريش، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم وذويهم، وعادتهم

---

(١) الذى القاه بمدينة ميونيخ في ١٤ مارس سنة ١٩٣١.

(٢) ينظر ص ١١٢ من (الإسلام يتحدى) للأستاذ العالم المسلم وحيد الدين خان.

قريش كمعاداتها للنبى ﷺ. وقد سارت هذه الحركة بمكة قدما تكافح وتناضل حتى أصبحت الأمور غاية في السوء واضطر أصحاب النبى ﷺ كما هو معروف أن يهاجروا إلى جهات مختلفة.. حتى اجتمع شملهم في المدينة المنورة وهم في أشد حالات العوز والفقر بعد ما تركوا ثرواتهم في مكة، ويمكن قياس فقر تلك الجماعة وبؤسها (من المهاجرين).. بتلك الجماعة التى عاشت في المسجد النبوى، وأطلق عليهم أهل الصفة.. والتى أوردت بعض كتب التاريخ أن عددهم قد بلغ في بعض الأحيان أربعمائة صحابى.. فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب (واحد) وليس عليهم غيره. فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك. فإذا ركع أحدهم قبض عليه. مخافة أن تبدو عورته».

«وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله ﷺ وبين حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها فيقول الناس: إنه مجنون وما بى جنون، وما بى إلا الجوع». في هذه الحالة البائسة، حيث كان المسلمون في أسوأ أحوالهم مكشوفين في عراء المدينة المنورة خائفين يترقبون الأعداء من كل جانب مخافة أن يتخطفوهم في أى وقت.. في هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخرى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة:٢١).

وقال أيضا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف:٨،٩).

ولم تمض على هذه البشرى أيام طويلة حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم فقد انتصرت أقلية ضئيلة لا تملك الخيول ولا الأسلحة، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة والعدة والعتاد.

«وليس بوسعنا تفسير هذه النبوءات في ضوء المصطلحات المادية إلا أن نسلم بأن صاحب هذا الإخبار بالغيب لم يأت به من عند نفسه، وإنما كان ينبئ

به عن الله، فلو كان إنسانا عاديا لاستحال كل الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ.. وكما قال (البروفيسور ستوبارت): إنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ الإنسانى بأكمله يقارب شخصية محمد ﷺ.

ثم يضيف قائلا: الا ما أقل ما أمتلكه من الوسائل المادية، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية فلن نجد فيه اسما منيرا هذا النور، وواضحا هذا الوضوح، غير اسم النبى العربى.

إن هذا الأمر هو أعظم دليل على كونه ﷺ مرسلا من لدن الحق تبارك وتعالى.. وإذا كان الفضل: هو ما شهدت به الأعداء..

فقد اعترف (السير وليام ميور) ذلك العدو اللدود للإسلام بالأمر بطريقة غير مباشرة حين قال:

«لقد دفن محمد ﷺ مؤامرات أعدائه في التراب، وكان يثق بانتصاره ليل نهار مع حفنة.. من الأنصار والأعوان رغم أنه كان مكشوفا عسكريا من كل ناحية وبعبارة أخرى كان يعيش في عرين الأسد ولكنه أظهر عزيمة جبارة، لا نجد لها نظيرا»[1].

(ب) أما النبوءة الثانية التى وردت في القرآن فهى الاخبار بغلبة الروم على الفرس وهى النبوءة التى صدرت كلماتها من لسان الرسول ﷺ في قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:١-٦).

وقد علق المؤرخ إدوارد جبن[2].. فقال: حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة لم تكن

(١) ص ١١٢ و ص ١١٤ من الإسلام يتحدى مع تصرف في العبارة واختصار فيها.

(٢) الإسلام يتحدى: نقل الأستاذ وحيد الدين خان عن إدوارد جبن في كتابه تاريخ سقوط واندحار الإمبراطورية الرومانية ص ٧٤ ما نقله من تعليق المؤرخ.

أية نبوءة أبعد منها وقوعا لأن السنين الاثنتى عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية.

وكتب الأستاذ وحيد الدين خان في كتابه معقبا على ذلك فقال[1]:

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم فلم يكد جبريل يبشر النبى بهذه البشرى حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الإمبراطورية الرومانية.

يرويه (إدوارد جين) على النحو الآتى:

إنها من أبرز البطولات التاريخية تلك التى تراها في هرقل فقد ظهر هذا الإمبراطور غاية في الكسل والتمتع بالملذات وعبادة الأوهام في السنين الأولى والأخيرة من حكومته، كان يبدو كما لو كان متفرجا أبله استسلم لمصائب شعبه، ولكن الضباب الذى يسود السماء ساعتى الصباح والمساء، يغيب حينا من الوقت لشدة شمس الظهيرة، وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل فقد تحول إلى (قيصر ميدان الحرب) فجأة واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة.. تبيانا لأسرار هذه اليقظة والنوم وبعد هذه القرون التى مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية فقد انقطع عن كافة الملذات حتى إنه هجر ابنة أخته (مارتينا) التى تزوجها لشدة هيامه بها رغم أنها كانت محرمة عليه.

لقد استطاع هرقل ذلك الملك الغافل الفاقد العزيمة أن يضع خطة لقهر الفرس خاض من أجل تنفيذها ست حروب شجاعة توجت بإرسال (قباد الثانى) ابن كسرى أبرويز الثانى يطلب الصلح وأعلن تنازله عن الأراضى الرومية التى كانت الفرس قد استولت عليها كما أعاد إلى الدولة الرومانية الصليب المقدس، ورجع هرقل إلى عاصمته القسطنطينية في مارس من عام ٦٢٨م في احتفال رائع

(١) الإسلام يتحدى ص ١١٧.

حيث كان يجر مركبته (أربعة أفيال) واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير خارج العاصمة في أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون[١]، وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم من غلبة الروم في مدته المقررة أى في أقل من عشر سنين كما هو المراد في لغة العرب من كلمة بضع[٢].

ثالثا - القرآن الكريم والكشوف الحديثة:

رغم نزول القرآن الكريم قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة لم يتمكن أحد من إثبات أية أخطاء علمية فيه ولو كان كلاما بشريا لكان خلوه من هذه الأخطاء ضربا من المستحيل.

ولذلك سوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلا ثالثا من أدلتى على صدق القرآن الكريم فلقد أنزل القرآن من قبل عصر النهضة ولكن أحدا من الناس لم يستطع إبطال شىء مما جاء به ولو كان هذا القرآن من كلام البشر لعد ذلك من ضروب الإحالة.

لقد نزل القرآن في عصر لم يكن الإنسان يعرف من الطبيعة إلا القليل النادر - لقد كانت نظرة الإنسان إلى قضايا كثيرة نظرة تتميز بالسذاجة فالأمطار في نظره تنزل من السماء والأرض في رأيه مستوية كالفراش، والسماء سقف الأرض في تقديره، والنجوم في تأمله مسامير من الفضة لامعة مركبة في قبة السماء أو أنها قناديل معلقة في الفضاء وأن الشمس ساكنة بلا حراك وأن الأرض تدور حولها إلى أن جاء (كوبرنيك) ١٤٧٣ - ١٥٤٣م وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس.

وهكذا تقدم العلم رويدا رويدا إلى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الإنسان فكشف عن أسرار كثيرة ويدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام إنسانى تدوم صحته كليا .. لأن الإنسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات

(١) الإسلام يتحدى ص١١٩ و ص١٢٠ نقلا عن المجلد الخامس (أدوارد جبن ص٩٤).
(٢) الإسلام يتحدى ص١٢٠. والبضع: في العدد ما بين الثلاث والتسع، ينظر المختار.

والعلوم في عصره.. إنه سوف يسرد ما وجده في زمنه سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور.. ولذلك لا نجد كتابا مضى عليه حين من الدهر إلا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه، نظرا للكشوف الجديدة في كل الميادين..

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية، فهو حق وصادق في كل ما قال كما كان في القرون الغابرة ولم يطرأ على مقاله أى تغير رغم مضى قرون وعصور طويلة وهذا في نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار يحيط بالأزل ومعرفته بالأبد علما وهو يعلم سائر الحقائق في صورها النهائية والحقيقية ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال ولو كان صادرا عن بشر محدودى النظر والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة كما يحدث لكل كلام إنسانى في مستقبله[1].

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التى تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التى لم تعرف إلا في عصرنا هذا وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها[2] ونستطيع أن نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب إلى نوعين:

الأول: ما عرف عنه الإنسان -حتى ذلك العصر- أمورا جانبية وسطحية.

والثانى: ما لم يعرف عنه ذلك الإنسان شيئا مطلقا.

والملاحظ على هذين القسمين: أن من إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث..

ومن الملاحظ كذلك أن مطابقة كلمات القرآن الكريم وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة

---

(١) ص ١٢٢ - ١٢٣ من الإسلام يتحدى للأستاذ وحيد الدين خان.
(٢) ص ١٢٣ من المصدر السابق.

موضـوع البحـث فتوفرت لدينا مـواد نافعـة لتفسيـر الإشـارات القرآنيـة في هذا الموضوع.

ولو أن دراسة المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كليا أو جزئيا فليس هذا بضائر مطلقا صدق القرآن بل إن معناه أن المفسر أخطأ في محاولته لتفسير إشارة مجملة فى القرآن وإننى لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحا لإشارات القرآن وأكثر بيانا لمعانيه الكامنة[١].

النوع الأول: وهو الذى عرف عنه إنسان العصر أمورا جانبية أو سطحية.. منه ما ذكره القرآن من قانون خاص (بالماء) فى سورتين هما سورة الفرقان - والرحمن.. ففى السورة الأولى جاء قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (الفرقان:٥٣).

والآية الثانية التى جاءت في السورة الثانية فهى قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن:١٩-٢٠) أن الظاهرة التى يذكرها القرآن هى أنه إذا ما التقى نهران في ممر مائى واحد فماء أحدهما لا يدخل (أى لا يذوب) في الآخر، أن هذه الظاهرة كانت معروفة (بالملاحظة) لدى الإنسان القديم ولكن العلم الحديث لم يكشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانونا ضابطا للأشياء السائلة يسمى قانون «المط السطحى» وهو يفصل بين السائلين لأن تجاذب الجزئيات يختلف من سائل لآخر، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله وقد استفاد العلم الحديث كثيرا من هذا القانون ونستطيع بكل ثقة أن نقول: إن المراد من البرزخ في الآية الكريمة في سورة الرحمن إنما هو «المط أو التمدد السطحى» الذى يوجد في المائين والذى يحول ويفصل بين الماء العذب والملح[٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد:٢) فإن

(١) ينظر الإسلام يتحدى ص ١٢٣ - ١٢٤ للأستاذ وحيد الدين خان.
(٢) ينظر في المصدر السابق ص ١٢٤ و١٢٥.

هذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم فإنه كان يشاهد عالما كبيرا قائما بذاته في الفضاء مكونا من الشمس والقمر والنجوم لم ير لها ساريات ولا عمد لكن الرجل الجديد يجد في هذه الآية تفسيرا لمشاهدته التى تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد في الفضاء اللانهائى بيد أن هناك (عمدا غير مرئية) تتمثل في (قانون الجاذبية) وهى التى تساعد كل هذه الأجرام على البقاء في أمكنتها المحددة..

وفيه قال القرآن الكريم عن الشمس والنجوم ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٤٠).

وكان الإنسان في العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت معين ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآنى موضع دهشتهم واستغرابهم، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوبا جديدا فليس هناك تعبيرا أروع ولا أدق من السباحة لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف(١).

النوع الثانى: وهو ما لم يعرف عنه الإنسان شيئا على الإطلاق وتناولته آى القرآن بالشرح والتوضيح كاشفة الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة فمنها ما يطرحه القرآن الكريم من حقائق محددة المعالم حول بداية الكون المادى ونهايته وجاء العلم الحديث ليشهد على صحة ما جاء به القرآن الكريم..

ففيما يتعلق ببداية الكون يقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء:٣٠)..

وفيما يتعلق بنهاية الكون يقول القرآن: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (الأنبياء:١٠٤)..

فالكون بناء على تفسير هذه الآيات كان منضما ومتماسكا (أى رتقا: منضم الأجزاء) ثم بدأ يتمدد في الفضاء ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى في حيز صغير..

أما الفكرة العلمية الجديدة عن الكون والتى توصل العلماء خلال أبحاثهم

(١) ينظر الإسلام يتحدى ص ١٢٦.

ومشاهداتهم لمظاهر الكون فهى أن المادة كانت جامدة وساكنة في أول الأمر وكانت في صورة غاز ساخن كثيف ومتماسك وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة على الأقل فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمرا حتميا لا بد من استمراره طبقا لقوانين الطبيعة التى تقول: إن قوة الجاذبية فى هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجيا بسبب تباعدها ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة.

ولتأكيد هذه الحقيقة وبسطها إيضاحا يقول (إيدنجتون): إن مثال النجوم والمجرات كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط وهو ينتفخ باستمرار وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية في عملية التوسع الكونى(١).

وأما الأمر الآخر فقد ثبت لنا صدقه كما ورد في القرآن فالنجوم فى حقيقة أمرها متباعدة بمسافات قياسية كما أن أكثرها يحتوى على فضاء خال بل إن كل جسم مادى يدور حول نظام له مثل النظام الشمسى الذى تدور حوله نجوم وسيارات كثيرة ومن أمثلته نظام الذرة.. ومعنى ذلك: إن كل شىء وإن بدا متماسكا يحوى حيزا من الفضاء في داخله. ومن هنا يرى علماء الطبيعة الفلكية أننا لو طوينا كل شىء فى الكون بدون أن نترك للفضاء مكانا فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفا من حجم الشمس.. ويمكن التعرف على ما به قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الإنسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسى(٢).

وجاء في القرآن الكريم أن الجبال أرسيت في الأرض حفاظا على توازنها.. وذلك قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (لقمان:١٠)..

لقد ظل العلم جاهلا بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية ولكن دارسى الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيدا تحت اسم (قانون التوازن) ولا يزال العلم الحديث في مراحله البدائية بالنسبة إلى أسرار هذا القانون.

يقول الأستاذ (إنجلن): من المفهوم الآن أن المادة الأقل وزنا ارتفعت على سطح الأرض – على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية وهى التى نراها الآن في شكل البحار – وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض(٣) ومنها: أن من الأغذية التى حرمها القرآن الكريم (الدم).

---

(١) ينظر ص ١٢٧ من الإسلام يتحدى.
(٢) ينظر الإسلام يتحدى ص ١٢٧.
(٣) ص ٢٩ من المصدر السابق.

وظل الإنسان غافلا عن أهمية هذا التحريم حتى أثبتت التحليلات التى أجريت للدم أنه يحتوى على كمية كبيرة من (حمض البوليك) السام والمضر بالصحة لو استعمل الدم غذاء وهذا هو السر في الذبح للحيوانات بطريقة معينة[١] تخرج سائر الدم من جسم الحيوان والتى تتلخص في قطع الوريدين والمرىء والقصبة الهوائية دون شيء آخر حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب إلى أن تنتهى حياة الحيوان وهى فترة تعرف في الفقه (بحياة المذبوح) وذلك لكيلا يكون سبب انتهاء حياة الحيوان الصدمة العنيفة التى وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية كالدماغ أو القلب أو الكبد.

والمقصود من ذلك هو تحاشى اللحم بتجمد الدماء في العروق لو انتهت حياة الحيوان في الحال.. ولقد حرم القرآن لحم الخنزير ولم يعرف الإنسان شيئا عن أسرار هذا التحريم حتى كشف العلم الحديث السر في ذلك وهو أن لحم الخنزير يحتوى على أكبر كمية من (حمض البوليك) بين سائر الحيوانات على ظاهر الأرض أما الحيوانات الأخرى (غير الخنزير) فهى تفرز هذه المادة بفعل الكليتين ومساعدتها، ولكن الخنزير لا يتمكن من إخراج حمض البوليك إلا بنسبة ٢٪ والكمية الباقية تصبح جزءا من لحمه[٢]. وثمة علة أخرى لعدم أكل لحمه هى نهى النبى ﷺ عن أكل لحوم الجلالة أو شرب ألبانها لما يترتب على ذلك من أمراض خطيرة لمتناولهما[٣].

وبعد:

فإن الباحث في القرآن الكريم يستطيع أن يجد أمثلة كثيرة لا حصر لها من هذا القبيل الذى أشرنا إلى بعضه.. وهو دليل قطعى على أن القرآن صادر من لدن حكيم حميد عز شأنه. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

خادم القرآن

محمد محمود عبد الله

---

(١) الذبح في حالة الاختيار يكون في العنق: وعروق العنق: التى تقطع بكل ما ينهر الدم إلا الظفر والحافر ١- الحلقوم (القصبة الهوائية) ٢- المرىء (مجرى الطعام) ٣ - ٤ والودجان، وهما الوريدان الرئيسيان الموجودان على جانبى العنق، ينظر كتاب اللحوم: تأليف الأستاذ سيد عبد الله ص ٤٥ وما بعدها. وينظر الفقه على المذاهب الأربعة: ط. وزارة الأوقاف ملحق الصيد والذبائح.

(٢) ينظر ص ١٣١ و ١٣٢ من الإسلام يتحدى.

(٣) ينظر ص ٤٨١ جـ٢ من كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد للعلامة ابن رشد.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
تمهيد للبحث	٥
التعريف بالعلم	٧
في تعريف القرآن العظيم	٨
في إمكان الوحى وإثبات الرسالة	١٠
عقيدة الإيمان بالنبوة والرسالة أو الوحى والإلهام	١٠
حاجة الإنسان إلى النبوة والأنبياء	١٣
ضرورة الرسالة لحياتها	١٣
بادئ ذى بدء	١٣
الطريق إلى فهم حقيقة النبوة	١٦
أبو حامد الغزالى وفهم حقيقة النبوة	١٦
حقيقة النبوة كما يكشف عنها ويشرحها الغزالى	١٩
الشك في النبوة ودحض الغزالى له بما يبطله	٢١
طريق اليقين بالنبوة هو هذا الذى قدمه الغزالى	٢٣
طريق اليقين بالنبوة كما يراه الشيخ محمد عبده	٢٣
من علامات النبوة وأماراتها	٣٠
أعظم المعجزات وأوضحها القرآن	٣٣
منهاج تحصيل العلم الضرورى بتصديق النبى ﷺ	٣٤
من علامات النبوة كما يراها بعض العلماء المعاصرين	٣٧
من أعلام نبوة المصطفى ﷺ والدلائل المتظاهرة على صدقه	٤٣
القرآن ودلالته على صدق النبى ﷺ	٦٥
القرآن الكريم ودلالته على صدق النبى	٧٦
إعجاز القرآن الكريم	٧٨
القرآن صوت الله في الأرض	٨٣
إعجاز القرآن	٨٣
ومما يؤكد أن القرآن الكريم هو صوت الله ويبرهن على أنه من عنده سبحانه نبوآته الصادقة	٨٤
القرآن الكريم والكشوف الحديثة	٩٠